عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

القرن الخامس عشر الهجري

الأبحاث والدراسات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

من المؤمنين رجال

بقلم

محمود شيت خطاب

بغداد ـ الجمهورية العراقية

ـ ١ ـ

سعيد بن عمرو الحرشي

فاتح شطر ارمينية ثانية
وشطر خراسان

نسبه وأيامه الأولى

هو سعيد بن عمرو بن أسود بن مالك بن كعب بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، واسم الحريش معاوية بن كعب(١) من قيس عيلان بن مضر(٢) .

ولم يكن سعيد من رؤساء قبيلته ، بل كان عصاميا ، تقدم بكده وعرقه وكفايته، وكان في صغره فقيرا معدما يسأل على الابواب ، ثم صار يسقي الماء ، ثم احترف الجندية ، فعلت حاله(٣) ، وتقدم في المناصب الادارية والعسكرية . ويبدو انه لفت انظار المسؤولين في الدولة بشجاعته وكفايته، ففرض بجهده ومزاياه نفسه على الحاكمين ، ولم يفرضها بحسبه ونسبه .

ولا نعرف متى وأين وُلد ، ولا تفاصيل حياته الأولى ، ولا سنة رحيله عن الدنيا ، وقد ذُكر أنه شامي ، وولد بأرمينية(٤) ، وأمه حبشية(٥) .

لقد كان حظ سعيد عند المؤرخين وكتاب السير في مجال حياته الخاصة حظا عاثرا ، فبخلوا عليه بذكر حياته الشخصية ، وعوضوا عليه بذكر حياته العامة قائدا واداريا .

في توطيد الأمن الداخلي

١ ـ في حرب عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث(٦) :

شهد سعيد ثورة ابن الأشعث على عبدالملك بن مروان ، وكان يقاتل تحت راية الحجاج بن يوسف الثقفي . وفي يوم من الايام خرج رجل من أهل العراق يقال له : قُدامة بن الحريش من رجال ابن

(١) جمهرة انساب العرب ، ٢٨٨ .
(٢) جمهرة انساب العرب ، ٢٧١ .
(٣) جمهرة انساب العرب ، ٢٨٨ ، وتهذيب ابن عساكر ١٦٤/٦ .
(٤) جمهرة انساب العرب ، ٢٨٨ ، وتهذيب ابن عساكر ١٦٤/٦ .
(٥) المحبر ، ٣٠٨ .
(٦) انظر تفاصيل ثورة عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث في الطبري ، ٣٢٤/٦ ـ ٣٤١ و ٣٤٢/٦ـ ٣٤٥و ٣٤٦/٦ـ٣٥٠، وابن الاشعث الكندي ، انظر ما جاء عنه في جمهرة انساب العرب ٤٢٥ .

الأشعث ليبارز رجلا من رجال الحجاج . وخرج اليه رجل من أهل الشام فقتله ، حتى قتل أربعة من أهل الشام . ولما رأى الحجاج ذلك ، أمر مناديا فنادى : لا يخرج الى هذا الرجل أحد ! فكفّ الناس .

وكلّم سعيد الحجاج فقال : « انك رأيت الا يخرج الى هذا الرجل أحد . وانما هلك من هلك من هؤلاء النفر بآجالهم ، ولهذا الرجل أجل ، وأرجو أن يكون قد حضر ، فأذن لاصحابي الذين قدموامعي فليخرج اليه رجل منهم » .

وأذنَ الحجاج أن يخرج أحد أصحاب سعيد لمبارزة هذا الرجل ، ولكن الرجل عاجل الشامي الذي خرج لمبارزته من أصحاب سعيد فقتله .

وشق ذلك على سعيد ، فأستأذن الحجاج في الخروج لمبارزة قُدامة ، فقال له : « وعندك ذلك؟» فقال سعيد : « نعم ، أنا كما تحب » ، فأمر له الحجاج بسيف مرهف ثقيل ، وأذن له بالمبارزة .

ومهما تكن نتيجة المبارزة ، اذ لم ينتصر سعيد على خصمه ويقضي عليه ، الا أن مجرد خروجه الى المبارزة متطوعا ، يدل على شجاعته وثقته بنفسه وحرصه على انتصار الدولة على ابن الاشعث وأصحابه(٧) .

٢ ـ القضاء على فتنة شوذب الخارجي :

في سنة مئة الهجرية (٧١٨ م) ، خرج شوذب الخارجي ، وهو بسطام من بني (يشكر)(٨) في (جوخي)(٩) ، وكان في ثمانين رجلا .

وكتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه الى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب عامله بالكوفة . الا يحركهم حتى يسفكوا دماء ويفسدوا في الارض ، فأن فعلوا فوجّه اليهم رجلا صليبا حازما في جند .

وبعث عبدالحميدوالي الكوفة محمدبن جريربن عبدالله البجلي(١٠) في ألفين ، وأمره بما كتب عمربن عبدالعزيز اليه .

كما كتب عمر بن عبدالعزيز الى بسطام الخارجي ، يسأله عن مخرجه ، وكان في كتاب عمر الى بسطام : «بلغني أنك خرجتغضبا لله ولرسوله، ولست اولى بذلك مني ، فهلم الىّ أناظرك ، فأن كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل الناس ، وان كان في يدك نظرنا في أمرك » ، فقدم كتاب عمر الى بسطام وقد قدم اليه محمد بن جرير ، فقام بأزائه لا يتحرك .

وكتب بسطام الى عمر : « قد أنصفت ، وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك » .

ووصل الرجلانالموفدان من بسطام الخارجي، وناظرا عمر بن عبدالعزيز ، فاقتنعا بوجهة نظره .

ومات عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه سنة احدى ومئة الهجرية (٧١٩ م) ، ومحمد بن جرير مقابل الخوارج ، لا يتعرضون اليه ولا يتعرض اليهم ، وكل منهم ينتظر عودة الرسل من عند عمر بنعبدالعزيز ، فتوفى عمر والامر علىذلك(١١).

وتولى يزيد بن عبدالملك بن مروان الخلافة بعده من أخيه سليمان بن عبدالملك بعد عمر بن عبدالعزيز(١٢) . فأحب عبدالحميد بن عبدالرحمنبن زيد بن الخطاب أمير الكوفة ، أن يحظى عند يزيد بن عبدالملك ، فكتب الى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شوذب .

ولما رأى الخوارج محمد بن جرير يستعد للحرب قالوا : « ما فعل هؤلاء هذا الا وقد مات الرجل الصالح » ، يريدون عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه .

ونشب الاقتتال بين الجانبين ، فأصيب من الخوارج نفر ، وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا ، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة ، وتبعهم الخوارج الى الكوفة ، ثم رجعوا الى مكانهم .

ووجه يزيد بن عبدالملك تميم بن الحُباب في الفين الى شوذب الخارجي ، فاقتتل الجانبان وقتل شوذب كثيرا من أصحاب تميم ، فلجأ فلول جيش تميم هاربين الى يزيد بن عبدالملك والى الكوفة أيضا .

وأرسل يزيد بن عبدالملك جيشا بقيادة نجدة بن الحكم الازدي الى شوذب ، فقتله الخوارج

---

(٧) انظر التفاصيل في الطبري ، ٦/٣٦١ ـ ٣٦٢ .
(٨) هو يشكر بن بكر بن وائل ، انظر التفاصيل في جمهرة انساب العرب ، ٣٠٨ .
(٩) جوخي : وردت في معجم البلدان ٣/١٦١ : جوخا ، اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد ، وكم تكن ببغداد كورة مثل جوخا .
(١٠) انظر سيرة أبيه : جرير بن عبدالله البجلي في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ ـ ٣٧١) .
(١١) انظر التفاصيل في : الطبري ٦/٥٥٥ وابن الاثير ٥/٤٥ ـ ٤٨ .
(١٢) ابن الاثير ٥/٦٧ .

وهزموا رجاله ، فوجه يزيد السجاح بن وداع في الفين ، فقتلوه وهزموا رجاله أيضا .

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبدالملك(١٣) الكوفة ، فشكا اليه أهل الكوفة مكان شوذب وتأثيره في اضطراب الامن وأثره في قوات الدولة ، فأرسل اليه مسلمة سعيد بن عمرو الحرشي ، وكان فارسا من فرسان العرب في عشرة آلاف .

وأتاه سعيد في مكانه ، فرأى شوذب وأصحابه ما لا قبل لهم به ، فقال لاصحابه : « من كان يريد الشهادة ، فقد جاءته ، ومن كان يريد الدنيا ، فقد ذهبت » .

وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا ، فكشفوا سعيدا وأصحابه مرارا ، حتى خاف سعيد الفضيحة ، فوبخ أصحابه وقال : « من هذه الشرذمة لا أب لكم تفرون !! يا أهل الشام ! يوما كأيامكم » .

وحمل سعيد وحمل أصحابه معه على الخوارج حملة صادقة ، فطحنوهم طحنا ، وقتلوا بسطاما — وهو شوذب — وأصحابه(١٤) .

وهكذا قضى سعيد بحسن قيادته وثباته وتحريضه أصحابه على الاقتتال والثبات ، على فتنة شوذب التي أثرت في معنويات سكان جنوبي العراق ، وأشاعت الفوضى والاضطراب فيه ، وكبدت الدولة خسائر فادحة بالاموال والرجال .

٣ — القضاء على فتنة يزيد بن المهلب :

حبس عمر بن عبدالعزيز في سجن (حلب) يزيد بن المهلب سنة مئة الهجرية (٧١٨ م) ، فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر(١٥) .

ولما اشتد مرض عمر بن عبدالعزيز ، خاف يزيد بن المهلب من يزيد بن عبدالملك(١٦) ، فهرب يزيد بن المهلب من محبسه سنة احدى ومئة الهجرية(١٧) (٧١٩ م) .

ووصل يزيد بن المهلب الى العراق ، وسيطر على (البصرة) ، فاصبح الموقف في العراق خطيرا للغاية بالنسبة للدولة .

وارسل يزيد بن عبدالملك الى (الكوفة) شيئا من المال ، ومنّى أهلها الزيادة ، وجهز أخاه مسلمة بن عبدالملك وابن اخيه العباس بن الوليد بن عبدالملك(١٨) في سبعين الفا من أهل الشام وجزيرة ابن عمر ، وقيل كانوا ثمانين الفا ، فساروا الى العراق ، وقدما (الكوفة) ونزلا (النخيلة)(١٩) .

وسار يزيد بن المهلب من (البصرة) ، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلب ، وأتى (واسطا)(٢٠) واقام بها أياما حتى خرجت سنة احدى ومئة الهجرية(٢١) .

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠) ، فسار يزيد بن المهلب من (واسط) واستخلف عليها ابنه معاوية . وجعل معه بيت المال والاسرى .

وسار يزيد بن المهلب بجيشه على فم (النيل)(٢٢) حتى نزل (العقر)(٢٣) ، فعسكر هناك .

وأقبل مسلمة بن عبدالملك بجيشه سالكا طريق نهر (الفرات) الى مدينة (الانبار)(٢٤) ، فعقد عليها جسرا وعبر .

وفي طريق مسلمة الى (العقر) ، في مرحلة مسير الاقتراب ، عقد يزيد بن المهلب لعبدالله بن

---

(١٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد الروم .

(١٤) انظر التفاصيل في : الطبري ٥٧٥/٦—٥٧٨ وابن الاثير ٦٨/٥ — ٧٠ ، وانظر : العيون والحدائق في اخبار الحقائق ٦٥ .

(١٥) الطبري ، ٥٥٦/٦ — ٥٥٨ ، وابن الاثير ٤٨/٥ — ٥٠ ، وانظر كتاب : الوزراء والكتاب ٣١ .

(١٦) كانت بين يزيد بن عبدالملك ويزيد بن المهلب عداوة شخصية قبل أن يتولى يزيد بن عبدالملك الخلافة ، وقد توعد كل منهما صاحبه ، انظر ابن الاثير ٥٧/٥ .

(١٧) انظر التفاصيل في : الطبري ٥٦٤/٦ — ٥٦٥ ، وابن الاثير ٥٧/٥ — ٥٨ وابن خلدون ١٦٦/٣ .

(١٨) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد الروم .

(١٩) النخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢٧٦/٨ — ٢٧٧ .

(٢٠) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي ، وسميت واسطا ، لانها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في : معجم البلدان ٣٧٨/٨ — ٣٨٧ ، وقد أطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة في العراق الاوسط ، احياء لذكرى مدينة واسط القديمة .

(٢١) انظر التفاصيل في : الطبري ٥٧٨/٦ — ٥٨٩ ، وابن الاثير ٧١/٥ — ٧٧ وابن خلدون ١٦٦/٣ — ١٦٩ ، وانظر خلاصة الذهب المسبوك ٢٦ .

(٢٢) النيل : بليدة في سواد الكوفة قرب مدينة (الحلة) : حلة بني مزيد ، يخرقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٣٦٠/٨ .

(٢٣) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ١٦٤/٦ — ١٦٥ .

(٢٤) الانبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٣٤٠/١ — ٣٤٢ ، وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم ، وأطلق اسمها على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة (الرمادي) التي أصبح اسمها اليوم : محافظة الانبار .

حيان العبدي على أربعة آلاف ، فعبروا نهر (الصراة)(٢٥) لعرقلة مسيرة مسلمة ، ولكن مسلمة وجه اليهم خيلا من أهل الشام عليهم سعيد بن عمرو الحرشي . وكان لاهل الشام كمين في منطقة نهر (الصراة) . فاقتلوا وقتل عبدالله بن حيان ، ثم خرج كمين أهل الشام على رجال عبدالله بن حيان فانهزموا حتى أتوا يزيد بن المهلب(٢٦) .

وعبر مسلمة (الصراة) بجيشه ، بعد أن طهر له الطريق سعيد ، فعبر النهر وهو آمن مطمئن لا يخشى مقاومة قوات يزيد ولا محاولة عرقلة مسيرته ، حتى اتخذ مواضعه تجاه جيش يزيد ، وخندق حول مواضعه خندقين(٢٧).

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومسلمة بن عبدالملك ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة لاربع عشرة مضت من صفر ، بعث مسلمة من يحرق الجسر .

وخرج مسلمة معبأ أهل الشام ، ثم قرب من ابن المهلب ، فلما أُحرق الجسر وسطع دخانه ، وقد أقبل الناس ونشب الاقتتال بين الجانبين ، ورأى أصحاب ابن المهلب الدخان ، وقيل لهم : أُحرق الجسر ، انهزموا !

وخرج يزيد بن المهلب مع أصحابه المقربين في محاولة لرد المنهزمين من جيشه ، ولكنه أخفق في محاولته .

واشتد الاقتتال بين الجانبين ، فلما كان اليوم الذي قتل فيه يزيد بن المهلب وهو يوم الجمعة لاربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين ومئة الهجرية ، خرج محمد بن المهلب على فرسه يقاتل ، فضُرب على جبهته بعمود ، فقال لهيزيد: « من ضربك ؟ » ، قال : « لا أدري ! الا انه حين ضربني قال : أنا الغلام الحرشي »(٢٨) .

وكان يزيد يقاتل ، فجاءه من ينعى اليه أخاه حبيبا الذي قتل في المعركة ، فقال يزيد : « لا خير في العيش بعده ! قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، وقد ازددت لها بغضا ! امضوا قدما »، فعلموا انه قد استقتل .

(٢٥) الصراة : المقصود هنا : صراة جاماسب ، تستمد ماءها من الفرات ، بنى عليها الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة النيل التي بارض بابل ، انظر : معجم البلدان ٣٤٩/٥ .
(٢٦) العيون والحدائق ٧١ .
(٢٧) العيون والحدائق ٧١ .
(٢٨) العيون والحدائق ٧٢ .

وباشر يزيد القتال حتى قُتل وقُتل معه محمد بن المهلب(٢٩) .

لقد احبط سعيد محاولة يزيد بن المهلب عرقلة سير الاقتراب لجيش مسلمة ، فيسر لمسلمة تنفيذ خطته المرسومة في القضاء على فتنة يزيد بن المهلب ، كما برز سعيد في هذه المعركة قائدا منتصرا ، ومقاتلا رهيبا ، وبطلا فارسا .

جهاده

١ ـ في ميدان الصغد(٣٠) :

في سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١ م) عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم الاموي عن (خراسان) واستعمل سعيد بن عمرو الحرشي(٣١) عليها .

ولما قدم سعيد الحرشي (خراسان) ، وجد أعداء المسلمين قد تكالبوا عليهم وأثروا فيهم ماديا ومعنويا ، فجمع سعيد من حضر من المسلمين وخطبهم وحثهم على الجهاد وقال : « انكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدة ، ولكن بنصر الله وعز الاسلام ، فقولوا : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .. وانشد :

فلست لعامر ان لم تروني
امام الخيل اطعن بالعوالي(٣٢)
فأضرب هامة الجبار منهم
بعضب الحد حودث بالصقال(٣٣)
فما أنا في الحروب بمستكين
ولا أخشى مصاولة الرجال
أبى لي والدي من كل ذم
وخالي في الحوادث خير خال

(٢٩) انظر التفاصيل في الطبري ٥٩٠/٦ ـ ٦٠٤ ، وابن الاثير ٧٧/٥ـ٨٩ وابن خلدون ١٦٦/٣ ـ ١٧٢ ، وانظر المسعودي ١٩٩/٣ ـ ٢٠٠ ، وتاريخ الموصل ١٠ـ١٦ والمعارف ٤٠٠ .
(٣٠) الصغد : منطقة واسعة جدا بين بخاري وسمرقند ، قصبتها سمرقند ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٨٦/٥ و ٣٦٢/٥ ـ ٣٦٤ ، وهو اقليم بآسيا الوسطى يمثل اليوم التركستان الغربية ، انظر القاموس الاسلامي ٣٦٨/٣ ، والصغد أمة من التركمان باسم المنطقة التي يطلق عليها : الصغد أيضا ، وقد تنطق بالسين .
(٣١) الطبري ٦٢٠/٦ وابن الاثير ١٠٣/٥ .
(٣٢) ابن الاثير ١٠٤/٥ : نطعن .
(٣٣) حودث : جلى .

اذا خطرت أمـــامي حي كعب
وزافت كالجبال بنو هلال»(٣٤)

ومن الواضح ان خطاب الحرشي كان لرفع المعنويات المنهارة لقوات المسلمين في خراسان ،لانهم نكبوا نكبات متعاقبة ، والعدو يحيط بهم ويهددهم بقواته المتفوقة ،فكان لابد من أن يبدأ الحرشي عمله الاداري والقيادي في خراسان ، بمحاولة رفـــع المعنويات وتبديل أوضاعها المتردية من حـــال الى حال .

ولعل الـــكلام المجرد في مثل ذلك الموقف لا يجـدي فتيـلا ، لهذا بـدا بنفسـه ، فقرر امام السامعين انه سيكون امام المجـاهدين ، ولا يكتفي باصدار الاوامر اليهم ثم يبقى في (الخلف) بدون ان يعاني شخصيا ما يعانيه المجاهدون قبل القتال وفي اثنائه وبعده ، بل يقودهم من (الامام) ، ليكون اسوة حسنة لاصحابه جميعا .

وكما رفع الحرشي بقوله وعملـه معنويات رجاله ، فان مقدمه الى (خراسان) زعزع معنويات أعداء المسلمين ، فلما سمع (الصغد) بقدومه خالفوا على انفسهم ، لانهم كانوا قد أعانوا الترك أيـــام سلفه سعيدبن عبدالعزيز الاموي الملقب بـ(خذينة)(٣٥) فاجتمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم ، فقال لهم ملكهم : « لا تفعلوا ! اقيموا ، واحملوا الخراج ما مضى ، واضمنوا له خراج ما يأتي وعمـــارة الارض » ، فقالوا : نخاف أن لا يرضى ، ولا يقبل ذلك منا ، ولكنا نأتي (خجندة)(٣٦) ، فنســتجير ملكها ، ونرسل الى الامير ، فنسأله الصفح عما كان منا ، ونوثق له انه لا يرى منا امرا يكرهه . فقال لهم الملك : « أنا رجل منكم ، والذي اشرت بهعليكم خير لكم »(٣٧) .

ويبدو ان ملك الصغد كان ضعيفا ، ولا راي لمن لا يطاع ، كما ان أثر الحرشي المعنوي فيهم كان بليغا ، فاضطرب أمرهم وولوا الادبار .

وخرج الصغد الى (خجندة) ، وارسلوا الى ملك (فرغانة)(٣٨) يسألونه ان يبسط حمايتهعليهم وينزلهم مدينته ، فأراد ان يحقق لهم رغباتهم ، ولكن أمه نصحته الا يقبلهم في مدينته ، بل يخصص لهم مكانا في منطقة أخرى .

وأرسل الملك اليهم أن يختاروا منطقة أخرى في بلاده يعيشون فيها قائلا : « ســـموا رستاقا تكونون فيه أفرغه لكم ، واجلوني اربعين يوما » ، وقيل : « أجلوني عشرين يوما » فاختاروا شـعب عصام بن عبدالله الباهلي ، وكان قتيبة بن مسـلم الباهلي(٣٩) قد خصص هذا الشعب لقريبه هـــذا وجماعته .

ووافق الملك على اختيار هـــذا الموضع من الصغد ، ولكنه اشترط عليهم : « ليس لكم على عقد وجوار حتى تدخلوه ، وان اتتكم العرب قبل ان تدخلوه ، لم أمنعكم » . فرضوا بهذا الشرط ، ففرغ لهم الشِّعْب(٤٠) .

وسار الحرشي سنة اربع ومئة الهجريـــة (٧٢٢ م) ، وقطع النهر (جيحون) ، ونـزل في (قصر الريح)(٤١) على فرسخينمن(الدبوسية)(٤٢)، ثم أمر بالرحيل قبل ان يجتمع اليه جنده ، فأشار عليه أحد رجاله بالتريث ليجتمع اليه جنده أولا ، ثم يرحل الى هدفه بعد ذلك(٤٣) .

ومن الواضح انه كان يريد الاسراع في تنقله ، ليصل الى هدفه بسرعة مناسبة ، لانه كان لعامل الوقت أثر في ضرب العدو قبل أن يرحـــل من (خجندة) ، لذلك أمر بالرحيل قبل اكمال حشد جيشه ، ولكنه آثر التريث بالرحيل عملا بنصيحة أحد رجالة ، لان تريثه أسلم عاقبة من تسرعه .

وأتاه ابن عم ملك (فرغانة) . واخبـره ان

(٣٤) الطبري ٦٢٠/٦-٦٢١ ، وابن الاثير ١٠٣/٥ - ١٠٤ .

(٣٥) خذينة : كلمة فارسية ، وهي الدهقانة ربة البيت ، فقد كان سعيد خذينة لينا سهلا متنعما ، فهو اشبه بربـــة البيت منه بالوالي القائد ، انظر الطبـــري ٦٠٥/٦ ، وابن الاثير ٩٠/٥ .

(٣٦) خجندة : مدينة مشهورة بما وراء النهر (جيحون) على شاطيء نهر (سيحون) ، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقا . وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع انزه منها ولا أحسن فواكه ، وفي وسطها نهر جار ، والجبل متصل بها ، وهي متاخمة لفرغانة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٤٠٢/٣ - ٤٠٣ .

(٣٧) الطبرى ٦٢١/٦ ، وابن الاثير ١٠٤/٥ .

(٣٨) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان ، ومن ولايتها خجندة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٣٦٤/٦ - ٣٦٥ .

(٣٩) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي.

(٤٠) الطبري ٦٢١/٦ - ٦٢٢ ، وابن الاثير ١٠٤/٥ - ١٠٥ .

(٤١) قصر الريح : قرية بنواحي نيسابور ، انظر معجم البلدان ١٠١/٧ .

(٤٢) الدبوسية : بليد من أعمال الصغد من وراء النهر ، انظر معجم البلدان ٣٣/٤ .

(٤٣) الطبري ٧/٧ ، وابن الاثير ١٠٧/٥ .

الصفد في (خجندة) ، وأشار عليه بأن يعاجلهم قبل أن يصلوا الى الشِّعب ، فليس لهم جوار على ملك (فرغانة) قبل أن يمضي الاجل وهو اربعون يوما .

ووجه الحرشي مع ابن عم ملك فرغانة عبدالرحمن القشيري وزياد بن عبدالرحمن في جماعة من جيشه، ولكنه ندم بعدما فصلوا وقال : «جاءني علج لا أعلم أصدق أم كذب ، ففررت بجند من المسلمين ! » ، فارتحل في أثرهم على عجل ، حتى نزل (أشروسنة)(٤٤) ، فصالحهم بشيء يسير .

واستمر مسرعا في مسيره باتجاه (خجندة) لا يلوى على شيء حتى لحق القشيري بعد ثلاثة أيام ، وحينذاك فقط اطمأنت نفسه على مصير رجاله .

ولما انتهى الى (خجندة) ، قال له بعض أصحابه : ما ترى ؟ قال : « أرى المعاجلة » ، قال: لا أرى ذلك ! ان جُرح رجل فالى اين يرجع ؟ أو قُتل قتيل فالى من يُحمل ؟ ولكنني أرى النزول والتأني والاستعداد للحرب .

ونزل الحرشي، وأخذ في التأهل والاستعداد، فلم يخرج أحد من العدو ، ولجأوا الى داخل المدينة .

وحمل رجل من المسلمين ، فضرب باب (خجندة) بعمود ، ففُتح الباب ، وكان الصفد قد حفروا في ربضهم وراء الباب الخارج خندقا وغطوه بقصب وتراب مكيدة ، وأرادوا اذا التقوا بالمسلمين وانهزموا كانوا قد عرفوا الطريق ، ويصعب على المسلمين معرفتها فيسقطون في الخندق . فلما خرج الصفد وقاتلوا المسلمين ، انهزموا ، فأخطأهم الطريق وسقطوا في الخندق ، فأخرج المسلمون منهم أربعين رجلا .

وحصرهم الحرشي ، ونصب عليهم المجانيق، فأرسلوا الى ملك (فرغانة) : انك غدرت بنا ! وسألوه ان ينصرهم ، فقال : « قد أتوكم قبل انقضاء الاجل ، ولستم في جواري » .

وطلب الصفد الصلح وسألوا الامان ، وان يردوهم الى بلادهم الاصلية ، فاشترط عليهم الحرشي : ان يردوا ما بأيديهم من نساء العرب وذراريهم ، وان يؤدوا ما كسروا من الخراج ، ولا يغتالوا أحدا ، ولا يتخلف منهم بـ (خجندة) أحد فأن أحدثوا حدثا حلت دماؤهم .

وخرج الى المسلمين رجالات الصفد وتجارهم، وترك أهل (خجندة) على حالهم ، ونزل عظماء الصفد على الجند المسلمين الذين سبقت لهم معرفة بهم .

وبلغ الحرشي ان الصفد قتلوا امرأة مسلمة ممن كان في أيديهم ، فقال : « بلغني أن أحدكم قتل امرأة ودفنها » ، فجحد الذي اشتبه به ، فتعمق في التحقيق ، فاذا الخبر صحيح ، فدعا بالقاتل الى خيمته فقتله .

ولما سمع كارزنج احد عظماء الصفد الذي كان في معسكر المسلمين بقتل الذي قتل المرأة العربية الاسيرة ، خاف أن يُقتل كما قُتل أخ له من قبل ، فأرسل الى ابن اخيه ليأتيه بسراويل ،وكان قد قال لابن أخيه : « اذا طلبتُ سراويل ، فاعلم أنه القتل» ، فبعث به اليه، وخرج يعترض الناس، فقتل عددا منهم ، مما أدى الى تضعضع العسكر الذين لقوا منه شرا ، فانتهى الى من قتله وانقذ المسلمين من شره .

وقتل الصفد أسرى عندهم من المسلمين يقدر عددهم بمئة وخمسين رجلا ، فأُخبر الحرشي بذلك ، فسأل فرأى الخبر صحيحا ، فأمر بقتلهم بعد عزل التجار عنهم لانهم غير محاربين ، فقاتلهم الصفد بالخشب لانهم كانوا بلا سلاح ، فقُتلوا عن آخرهم ، وكانوا ثلاثة آلاف ، وقيل : سبعة آلاف ، واصطفى أموال الصفد وذراريهم ، وأخذ منها ما أعجبه .

وكتب الحرشي الى يزيد بن عبدالملك مباشرة ولم يكتب الى عمر بن هبيرة ، فكان هذا مما أوغر صدره عليه .

وسرح الحرشي سليمان بن أبي السرى مولى بني عوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم(٤٥) الى حصن يحيط به وادي الصفد الا من وجه واحد ، فسيّر سليمان على مقدمته المسيب بن بشر الرياحي ، فتلقوه على فرسخ من الحصن ، فهزمهم حتى ردهم الى حصنهم ، فحصرهم في داخل الحصن ، فطلب قائد الحصن أن ينزل على حكم الحرشي ، فسيّره سليمان اليه ، فأكرمه . وطلب أهل الحصن الصلح على ألا يتعرض لنسائهم

(٤٤) أشروسنة : بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند ، وبينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخا ، انظر التفاصيل في : معجم البلدان ٢٥٦/١ – ٢٥٧ .

(٤٥) جمهرة انساب العرب ٢١٥ .

وذراريهم ويسلمون القلعة ، فبعث من قبضه ، وباعوه وقسموه .

وسار الحرشي الى (كش)(٤٦) فصالحه أهلها على عشرة آلاف رأس ، وقيل : ستة آلاف رأس: كل رأس منهم يعطي الجزية للمسلمين .

وسار الى (زرنج)(٤٧) ، فوافاه كتاب ابن هبيرة باطلاق سراح قائد الحصن الذي طلب أن ينزل على حكم الحرشي ، ويدعى : ديوشتى فقتله الحرشي وصلبه !

واستعمل الحرشي سليمان بن ابي السري على (كش) و (نسف)(٤٨) : حربها وخراجها . وكانت (خراب)(٤٩) منيعة حصينة ، فبعث المسربل بن الحريث الناجي ، وكان صديقا لملكها الذي يدعى : سبغري ، فأخبر الملك بما صنع الحرشي بأهل (خجندة) وخوفه ، فقال الملك : « فما ترى ! » ، قال : « ان تنزل بأمان »، قال : « فما أصنع بمن لحق بي ؟! » قال :«تجعلهم في أمانك » فآمنوه وبلاده ، ورجع الحرشي الى خراسان ومعه سبغرى ، فقتل سبغرى وصلب ومعه الامان(٥٠) .

ولا ينكر ان الترك والصغد نقضوا عدة مرات دون مسوغ ، وكبدوا الدولة الاسلامية خسائر فادحة في الارواح والاموال والجهد ، ومنعوا ما عليهم من خراج وجزية ، ولكن ذلك لايسوغ غدر الحرشي بمن اعطاهم الامان، ولا ينكث بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه ، لان من أول نتائج الغدر زعزعة الثقة بين الحكام والمحكومين، اضافة الى أن الغدر يناقض تعاليم الاسلام في القتال .

ولكن ، لعل له عذرا فيما فعل ، وسيرد تفصيل ذلك في سيرته انسانا وقائدا .

٢ – في ميدان ارمينية :

في سنةاثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) قتل الجراح بن عبد الله الحكمي في (ارمينية) .

(٤٦) كش : قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان ، انظر معجم البلدان ٢٥٤/٧ .
(٤٧) زرنج : مدينة هي قصبة سجستان ، انظر معجم البلدان ٣٨٥/٤ .
(٤٨) نسف : مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند،انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢٨٦/٨ .
(٤٩) خزار : موضع بقرب نسف .
(٥٠) انظر التفاصيل في : الطبري ٧/٧–١٢ ، وابن الاثير ١٠٧/٥ – ١١٠ .

ولما بلغ هشام بن عبدالملك خبر استشهاد الجراح بن عبدالله الحكمي ، دعا سعيدا الحرشي ، فقال له : « بلغني ان الجراح قد انحاز عن المشركين ! »،قال : « كلا يا أمير المؤمنين ! الجراح اعرف بالله من أن ينهزم ، ولكنه قتل » . قال : « فما رأيك ؟ » ، قال : « تبعثني على اربعين دابة من دواب البريد ، ثم تبعث الي كل يوم اربعين رجلا ، ثم اكتب الى امراء الاجناد يوافوني » ، ففعل ذلك هشام(٥١) ، وولاه مقدمة مسلمة بن عبدالملك(٥٢) الذي استعمله على ارمينية واذربيجان(٥٣) .

وسار الحرشي ، فكان لا يمر بمدينة الا ويستنهض أهلها ، فيجيبه من يريد الجهاد .

ووصل الى مدينة « ارزن »(٥٤) ، فلقيه جماعة من أصحاب الجراح وبكوا وبكي لبكائهم ، ففرق بينهم نفقة وردهم معه .

ووصل على رأس المقدمة الى (خلاط)(٥٥) وهي ممتنعة عليه ، فحصرها وفتحها وقسم غنائمها في اصحابه .

وسار عن (خلاط) ، وفتح الحصون والقلاع شيئا بعد شيء ، الى أن وصل الى (برذعة)(٥٦) ، فنزلها .

وكان ابن خاقان يومئذ بأذربيجان ينفير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة « ورثان »(٥٧) فخاف الحرشي ان يملكها ، فأرسل بعض أصحابه الى أهل (ورثان) سرا يعرفهم بوصولهم ويأمرهم بالصبر ، فسار الرسول ، ولقيه بعض الخزر ، فأخذوه وسألوه عن حاله ، فأخبرهم وصدقهم ، وقال الخزر له : ان فعلت ما نأمرك به أحسنا اليك وأطلقناك ، والا قتلناك . قال : « فما الذي تريدون ؟! » قالوا : تقول لاهل

(٥١) ابن الاثير ١٥٩/٥–١٦٠ ، وانظر الطبري ٧٠/٧ وتاريخ خليفة بن خياط ٣٦٥/٢ .
(٥٢) فتوح البلدان ٢٩٠ .
(٥٣) فتوح البلدان ٢٩٠ .
(٥٤) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ١٩٠/١ – ١٩١ .
(٥٥) خلاط : مدينة مشهورة ، وهي قصبة ارمينية الرابعة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٤٥٣/٣ .
(٥٦) برذعة : مدينة كبيرة جدا في ارمينية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ١١٩/٢–١٢٢ .
(٥٧) ورثان : بلد هو آخر حدود اذربيجان ، بينه وبين وادي نهر (الرس) فرسخان ، وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٤١٣/٨–٤١٤.

(ورثان) انكم ليس لكم مدد ، ولا من يكشف ما بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد الينا .. فأجابهم الى ذلك .

وقارب الرجل المسلم المدينة، فوقف بحيث يسمع أهلها كلامه ، والخزر يترصدونه ويسمعون كلامه ، فقال لاهل (ورثان) : «اتعرفوني ؟» قالوا: نعم ، أنت فلان ! قال : « فأن الحرشي قد وصل الى مكان كذا في عساكر كثيرة ، وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر ، وفي هذين اليومين يصل اليكم»، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل .

وقتلت الخزر ذلك الرجل ، ثم رحلوا عن مدينة (ورثان) ، فوصلها الحرشي في العساكر وليس عندها أحد .

وارتحل الحرشي يطلب الخزر الى (اردبيل)(٥٨) ، فسار الخزر عنها .

ونزل الحرشي (باجروان)(٥٩) ، فجاءه من يخبره بأن الخزر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى او سبايا ، وقد نزلوا على بعد اربعة فراسخ من مكانه الذي هو فيه .

وسار الحرشي ليلا ، فوافاهم آخر الليل وهم نيام ، ففرق أصحابه في أربع جهات ، وكبس الخزر مع الفجر ، فوضع المسلمون فيهم السيف ، فما بزغت الشمس حتى أبادهم المسلمون . واطلق الحرشي من كان مع الخزر من المسلمين وأخذهم معه الى (باجروان) .

ولم يكد يستقر به المقام في (باجروان) الا وأتاه من يخبره بأن الخزر ومعهم أموال المسلمين وحرم الجراح واولاده في مكان قريب .

واسرع الحرشي الى هدفه الجديد ، فلم يشعر الخزر الا والمسلمون معهم ، فوضعوا فيهم السيف وقتلوا كيف شاءوا ، ولم يفلت من الخزر الا الشريد ، واستنفدوا من معهم من المسلمين والمسلمات ، وغنموا أموالهم ، واخذوا اولاد الجراح وحرمه واكرموهم واحسنوا اليهم، وحملوا الجميع الى (باجروان) .

وبلغ ما فعله الحرشي بعساكر الخزر ابن ملكهم ، فوبخ عساكره وذمهم ونسبهم الى العجز والوهن ، فحرض بعضهم بعضا ، وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود الى قتال المسلمين .

وجمع ابن ملك الخزر اصحابه من نواحي اذربيجان ، فاجتمع معه عساكر كثيرة .

وسار الحرشي الى جموع الخزر ، فالتقى المسلمون بالخزر في ارض (برزند)(٦٠) ، فنشب القتال بين الجانبين بشدة وعنف . وانحاز المسلمون وقتا يسيرا ، وتصدعت اركان صفوفهم، ولكن الحرشي حرضهم وأمرهم بالصبر ، فعادوا الى القتال وصدقوهم الحملة .

واستغاث من مع الخزر من أسارى المسلمين، ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء ، فتصاعد استقتال المسلمين ، ولم يبق أحد الا وبكي رحمة للاسرى .

واشتدت حملة المسلمين على الخزر ، فولوا الادبار منهزمين، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر (الرس)(٦١) ، ثم عادوا عنهم بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين وسباياهم ، وغنموا أموال الخزر، ورجعوا الى (باجروان) .

وجمع ابن ملك الخزر من لحق به من عساكره وعاد بهم الى الحرشي، فنزل على نهر (البيلقان)(٦٢)، فالتقوا هناك .

وحمل المسلمون على الخزر حملة صادقة ، في منطقة نهر (البيلقان) ، فتضعضعت صفوف الخزر . وتتابعت حملات المسلمين، فصبر الخزر صبرا عظيما ، ثم كانت الهزيمة عليهم ، فولوا الادبار منهزمين ، وكان من غرق منهم في النهر أكثر ممن قتل .

وجمع الحرشي الغنائم ، وعاد الى (باجروان) فقسمها(٦٣) .

---

(٥٨) اردبيل : من أشهر مدن اذربيجان ، وكانت قبل الفتح الاسلامي قصبة اذربيجان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ١/١٨٢ – ١٨٤ .

(٥٩) باجروان : مدينة من نواحي (باب الابواب) قرب مدينة شروان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢/٢٤ .

(٦٠) برزند : بلدة من نواحي تفليس من اعمال جرزان من ارمينية الاولى ، بينها وبين اردبيل خمسة عشر فرسخا، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٢٤) .

(٦١) نهر الرس : نهر مخرجه من قاليقلا ويمر بارزان ثم يمر بورثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو ونهر الكر وبينهما مدينة البيلقان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٤/٢٥٠ – ٢٥١ .

(٦٢) البيلقان : مدينة قرب (باب الابواب) تعد من ارمينية الاولى قريبة من شروان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢/٣٤٠ – ٣٤١ .

(٦٣) ابن الاثير ٥/١٥٩ – ١٦٢ .

وقدم مسلمة بن عبدالملك ارمينية ، والخزر قد انسحبوا الى (ميمذ)(٦٤) ، والحرشي يتهيأ لقتالهم ، فأتاه كتاب مسلمة يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه ، ويعلمه انه قد عزله وولى قيادة عسكره غيره . وسلم سعيد الحرشي القيادة ، فأخذه رسول مسلمة وقيده وحبسه في سجن (برذعة) . وكتب مسلمة الى هشام بن عبدالملك في (دمشق) بما حدث ، فكتب هشام الى مسلمة :

أتتركهم بميمذ قد تراهم
وتطلبهم بمنقطع التراب !!

وأمر هشام باطلاق سراح سعيد الحرشي من السجن(٦٥) ، فعاد الى دمشق(٦٦) .

لقد كان واجب الحرشي في هذه الغزوة واضحا جليا : استنقاذ اسرى المسلمين وسباياهم، واستعادة فتح المناطق التي احتلها الخزر بعد استشهاد الجراح بن عبدالله الحكمي(٦٧) ، وتلقين الخزر درسا لا ينسونه أبدا لنقضهم العهد واسر كثير من المسلمين وسبي ذريتهم وقتل كثير منهم .

وكان الحرشي موفقا غاية التوفيق في اداء واجبه على احسن وجه ،فانطلق على دواب البريد ـ وهي اسرع واسطة للنقل في حينه ـ بسرعة خاطفة،واستهدف انقاذ اسرى المسلمين وسباياهم اولا ، فكان يستنقذهم بالقتال فورا بعد معرفة اماكنهم ، ومع ذلك لم يقصر في استعادة فتح المناطق المحتلة من الخزر ، وتلقينهم دروسا قاسية في القتال كبدتهم خسائر فادحة في الاموال والانفس والمعنويات ، والحقت بهم هزائم شنيعة.

فما كان ينبغي لمسلمة ان يلوم الحرشي ويقيده ويحبسه ويعزله عن قيادته لانه قاتل الخزر قبل قدومه ، فواجب الحرشي أن يستنقذ الاسرى والسبايا بسرعة قبل ان يقضى عليهم وينقذهم من الذل والهوان الذي لم يعتاده المسلمون وقتذاك، ويعيدهم الى دار الاسلام احرارا ، وكان ينبغي لمسلمة ان يشكر الحرشي كما فعل هشام .

ومثل هذا الواجب ، يقتضي السرعة الخاطفة والاندفاع الجريء ، لا التريث والانتظار .

لقد كانت هذه الغزوة من اروع اعمال الحرشي القتالية ، فقد جاء ارمينية والمسلمون فيها أسرى وسبايا ، فأعاد اليهم حريتهم وكرامتهم . وجاءها وهي تحت سيطرة الخزر ، فاستعاد فتحها ، وكان الميزان العسكري الى جانب اعداء المسلمين ، فجعل هذا الميزان الى جانب المسلمين، وكان الخزر هم الذين يقتلون المسلمين ويأسرونهم، فأصبح المسلمون هم الذين يقتلون الخزر ويأسرونهم . وكان المسلمون يخافون الخزر ، فأصبح الخزر يخافون المسلمين ، وكانت مدن المسلمين محتلة او محاصرة ، فأصبحت مدن الخزر مفتوحة او محاصرة .

لقد قلب الحرشي خلال وقت قصير جدا الموازين رأسا على عقب في ارمينية لصالح المسلمين .

الانسان

كتب عمر بن هبيرة الذي كان على العراق الى يزيد بن عبدالملك ، بأسماء من أبلى يوم (العقر) ولم يذكر سعيدا الحرشي ، فقال يزيد : « لِمَ لم يذكر الحرشي ! ؟ » فكتب الى ابن هبيرة : « وَلِّ الحرشي خراسان » ، فولاه(٦٨) .

وكان موقف الحرشي قبل يوم (العقر) قائدا مرؤوسا ، وفي اثناء المعركة موقفا بطوليا مشهودا، لم يخف عن الخليفة يزيد بن عبدالملك وهو في عاصمته دمشق ، ولا يمكن أن يخفى على أحد من الحكام والمحكومين ومنهم ابن هبيرة ، ولكنه لم يذكر اسمه في قائمة الشرف لعداوة ابن هبيرة اياه ، فلما قرأ يزيد اسماء أصحاب البلاء تساءل : « اين الحرشي ؟!» فوالله ما كان الفتح الا على يديه ، وما قتل المرتدين غيره ، ويريد بالمرتدين الذين ثاروا على الدولة بقيادة يزيد بن المهلب، فكتب الى ابن هبيرة : « ان وله خراسان » فولاه ثغرها ،وذلك في سنة ثلاث ومئة الهجرية(٦٩) .

وكان الحرشي عند حسن ظن يزيد بن عبدالملك به ، فقد أعاد الامن الى ربوع خراسان ، وقتل الذين نقضوا عن آخرهم وسبى ذراريهم(٧٠).

---

(٦٤) ميمذ : مدينة باران في ارمينية الاولى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢٢٧/٨ .
(٦٥) فتوح البلدان ٢٩٠ .
(٦٦) ابن الاثير ١٦٢/٥ .
(٦٧) ابن الاثير ١٦٢/٥ .
(٦٨) الطبري ٦٢٠/٦ ، وابن الاثير ١٠٣/٥ .
(٦٩) تهذيب ابن عساكر ١٦٤/٦ ـ ١٦٥ .
(٧٠) تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٦/١ .

فلماذا كان ابن هبيرة يناصب العـــداء للحرشي ؟

لقد بنى الحرشي سمعته الطيبة على كفاياته الشخصية لا على حسبه ونسبه ، فقد كان في أول ايامه فقيرا معدما(٧١) ، وانما تقدم باخلاصـــه وشجاعته ودينه(٧٢) ، فكان يعمل بأبداعه الذاتي خضوعا للمصلحة العامة دون أن ينتظر توجيهات السلطة التي يرتبط بها وينفذ اوامرها ملتزما بتلك التوجيهات والاوامر التزاما صارما ، فقد لا تصله توجيهات السلطة التي يرتبط بها مباشرة ، او قد تأتي متأخرة فيذهب نفعها وتفقد اهميتها ، ممـا يلحق الضرر بالمصلحة العامة دون مسوغ .

كما انه (يرى) الاحداث بعينيـــه ، فهو (حاضر) في جو الاحداث ، بينمـــا السلطة التي يرتبط بها مباشرة (تسمع) عن تلك الاحـــداث بأذنيها ، فهي (غائبة) عن جو الاحداث ، وليس من (رأى) كمن (سمع) ، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب .

والولاة والقادة صنفان في كل زمان ومكان : صنف (متبع) ينتظر الاوامر فينفذها حرفيـــا والتوجيهات فيطبقها نصا ، واغلب هذا الصنف تنقصه الكفاية أو لا يحب تحمل المسؤولية ولا يثق بنفسه ثقة كاملة ، فهو موظف حسب . وصنف (مبتدع) لا ينتظر الاوامر والتوجيهات ، لانـــه أعرف بالموقف الراهن من غيره ، واغلب هـــذا الصنف يتميز بالكفاية العالية ، ويحب تحمـــل المسؤولية ، ويثق بنفسه ثقة كاملة .

والصنف الاول يريح صـــاحب السلطان ويستريح اليه في اوقات الدعة والاطمئنان ، ولكنه يتملص من كل مسؤوليةفي اوقات الخطر والملمات.

والصنف الثاني لا يستريح اليه صـــاحب السلطان في اوقات الدعة والهدوء ، ولكنه يلجأ اليه في أوقات الحروب والمدلهمات .

وقد كان الحرشي من الصنف الثاني ، لذلك أثبت وجوده في أيام الشدة والمصائب ، وغاب عن الانظار في أيام اللهو واللعب ، وربما قضى ردحـا غير قليل من تلك الايام في غياهب السجون .

والدليل على بغض ابن هبيرة للحرشي ، انه بادر بعزله عن (خراسان) سنة اربع ومئة الهجرية (٧٢٢ م) ، بعد أن اســتقرت امور ابن هبيرة في العراق من جهة ، وبعـــد ان اعاد الحرشي الامن والسلام الى (خراسان) واســـتعاد فتحها من جديد .

وكان السبب في عزل الحرشي عن (خراسان) بعد ان مكث فيها سنة أو بعض سنة في حـــرب دامية متنقلا في الجبال والوهاد ، معرضا نفســه لاعظم الاخطار ، لا يريح ولا يستريح ولا ينام ولا ينيم ، فلما انتصر على الاعداء ووطد اكناف البلاد، وآن له أن يستريح قليلا ويأخذ لنفسه اغفـــاءة قصيرة ، عزله ابن هبيرة ليغلق نافذة يأتيه الريح المزعج من منافذها ، ليولى رجلا يريحه ولا يزعجه ويطيعه ولا يعصيه .

وكان السبب في عزله ، ما كان كتبه ابن هبيرة الى الحرشي باطلاق سراح أحد قادة الصغد الذي يدعى(ديوشتى) ، فقتله ولم ينفذ أمر ابن هبيرة. كما كان يستخف بابن هبيرة ويذكره بأبي المثنى ولا يقول الامير ، فيقول : قال أبو المثنى ، وفعل أبو المثنى، فبلغ ذلك ابن هبيرة ، فأرسل اليه جميل بن عمران ليعلم حال الحرشي ، واظهر انـــه ينظر في الدواوين ، فلما قدم جميل على الحرشي قال : « كيف أبو المثنى ؟ » ، فقيل له : ان جميلا لم يقدم الا ليعلم علمك ! ومرض جميل مرضـــا شديدا وسقط شعره(٧٣) . وعولج جميل حتى تماثـــل للشفاء ، ففادر (خراسان) عائدا الى ابن هبيرة في العراق ، فقال لابن هبيرة : « الامر أعظم مما بلغك .. ما يرى الحرشي الا انك عامل لـــه » ، فغضب وعزله ونفخ في بطنه النمل(٧٤) وعذبه(٧٥) .

ومن اسباب عزله ، أن ابن هبيرة وجـــه معقل بن عروة الى (هراة)(٧٦) اما عاملا وامـــا في غير ذلك من أموره ، فنزل قبل أن يمـــر على الحرشي . وكتب الحرشي الى عامله على (هراة) يأمره أن يحمل معقلا اليه ، فقال له الحرشـي : « ما منعك من اتياني قبل ان تأتي هراة ؟ » ،فقال: « أنا عامل لابن هبيرة ، ولاني كما ولاك » فضربه

(٧١) تهذيب ابن عساكر ٦/١٦٤ .
(٧٢) ابن الاثير ٥/١٠٨ .

(٧٣) قيل : ان الحرشي بعث لجميل بطيخة مسمومة ، فاكلها ومرض وسقط شعره ، انظر ابن الاثير ٥/١١٥ ، ولا يمكن ان نصدق هذه التهمة ، فقد كان الحرشي متدينا ، لا يقدم على مثل هذا الامر وهو ارفع من ذلك .
(٧٤) النمل هنا : بثور صغار مع ورم صغير .
(٧٥) الطبري ٧/١٥-١٧ ، وابن الاثير ٥/١١٥ .
(٧٦) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من امهات مدن خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٨/٤٥١-٤٥٢ ، وهي من أهم مدن افغانستان حاليا .

مئتي جلدة وحلقه(٧٧) . وكتب ابن هبيرة الى الحرشي يلخنه، فقال : « بل هو ابن اللخناء»(٧٨).

ولا شك في ان للحرشي أسبابه الوجيهة التي جعلته يقف مثل هذه المواقف من ابن هبيرة ، فلم يكن الرجل غرا ولا متهما في عقله ، ليقف مثل هذه المواقف الجريئة دون مسوغ .

وقد سكت المؤرخون عن أسباب الحرشي ، ولكن يستطيع كل من يدرس شخصيته ان يبوح بتلك الاسباب .

ويبدو ان الحرشي قتل أحد قادة الصغد بعد أن اكرمه واحسن وفادته ، لانه اكتشف ان هذا القائد الصغدي قد لوث يديه بدماء المسلمين واعتدى على حرماتهم ، ومن المعروف أن الحرشي أجرى تحقيقا شاملا دقيقا لمعرفة الذين اعتدوا على أرواح المسلمين وأعراضهم ، فنال المجرمون من الصغد ما يستحقونه من عقاب .

ومن المحتمل أن يكون هذا القائد الصغدي أحد اولئك المجرمين ، فقتله الحرشي مجرما ، سياسيا أو أسيرا .

أما ان الحرشي يذكر ابن هبيرة بأبي المثنى ولا يقول الامير ، فهو يرى نفسه ندا لابن هبيرة فقد ولاه الخليفة على خراسان ولم يولّه ابن هبيرة ، ونال هذا المنصب بجهده وعرقه وجهاده لا بوسائل أخرى .

أما عقاب الحرشي لمعقل فكان شديدا حقا ، ولكن لم يكن هذا العقاب بلا مسوغ ، وبخاصة ان القلاقل والفتن في خراسان، كانت تتطلب استعادة هيبة الحكم فيها قويا مهابا ، ولا يتم ذلك الا بفرض السيطرة الكاملة .

وأحسب ان الحرشي كان منطقيا مع نفسه حصيفا غير متهور ، وكانت له أسبابه المنطقية في مخالفاته ، ولكن السلطات العليا لا ترضى من السلطات المرؤوسة غير الطاعة العمياء التي كان الحرشي يعتبرها نوعا من النفاق والاستخذاء .

وقد كان لسلفه على خراسان عمال اختارهم ليعاونوه في تحمل أعباء مهمته ، فلما قدم الحرشي خراسان لم يعرض لعمال سلفه(٧٩) ، بل تركهم على ما كانوا عليه ، مما يدل على انه لم يأت منتقما ولا كان من الذين يعملون لمصلحتهم الذاتية ، بل كان رجل دولة يعمل للمصلحة العامة وحدها .

وقد سجن الحرشي وعذب عذابا أليما ، وتولى أمر تعذيبه حتى الموت معقل بن عروة الذي كان الحرشي قد سجنه في خراسان وضربه مئتي سوط كما ذكرنا، فقد أمر ابن هبيرة عامله الجديد على خراسان ان يحمل اليه الحرشي مع معقل بن عروة ، فأساء معقل بالحرشي وضيّق عليه . وفي يوم من الايام أمر ابن هبيرة معقلا ان يعذب الحرشي ويقتله بالعذاب الاليم . وجاء المساء ، فسمر ابن هبيرة مع الصفوة من خلانه ومحاسيبه، فقال : « من سيد قيس ؟ » فقالوا : الامير . قال : « دعوا هذا ! سيد قيس الكوثر بن زُفر ، لو بوّق بليل لوافاه عشرون ألفا لا يسألونه : لِمَ دعوتنا ولا يسألونه . وهذا الحمار الذي في الحبس ـ يريد الحرشي ـ قد أمرتُ بقتله فارسها ، وأما خير قيس لها ، فعسى أن أكونه . انه لم يعرض اليّ أمر أرى اني أقدر فيه على منفعة وخير الا جررته اليهم » ، فقال اعرابي من فزارة : « ما انت كما تقول! لو كنت كذلك ما أمرت بقتل فارسها »، فأرسل ابن هبيرة الى معقل : « أن كُفّ عما كنتُ أمرتك به »(٨٠) .

ودار الزمن دورته ، فمات يزيد بن عبدالملك وتولى هشام بن عبدالملك سنة خمس ومئة الهجرية (٧٢٣ م) فعزل هشام ابن هبيرة عن العراق واستعمل خالد ابن عبدالله القسري(٨١) ، فبادر خالد بعد وصوله الى العراق باطلاق سراح الحرشي من السجن بعد ان مكث فيه سنة وشهورا . وهرب ابن هبيرة من العراق لا يلوى على شيء يريد النجاة بنفسه شريدا طريدا متخفيا، فأرسل خالد في طلبه الحرشي ، فلحقه بموضع من الفرات يقطعه الى الجانب الآخر في سفينة ، وكان في صدر السفينة غلام يقال له : قبيض . وعرف الحرشي ذلك الغلام فقال له : « قبيض ؟ » ، قال : « نعم ! » ، فقال : « أفي السفينة أبو المثنى ؟! » ، قال : « نعم » . وخرج اليه ابن هبيرة فقال له الحرشي : « أبا المثنى ! ما ظنك بي ؟ ! » ، قال : « ظني بك انك لا تدفع رجلا من قومك الى رجل من قريش ! » ، قال : « هو ذاك » ، قال « النجاء »(٨٢) ، وهذا

---

(٧٧) حلقه :وسمه بحلقة في فخذه .
(٧٨) الطبري ١٦/٧ .
(٧٩) ابن الاثير ١٠٣/٥ .
(٨٠) الطبري ١٦/٧ وابن الاثير ١١٥/٥-١١٦ .
(٨١) الطبري ٢٦/٧ ، وابن الاثير ١٢٤/٥ .
(٨٢) الطبري ١٧/٧ وابن الاثير ١١٦/٥ ، وابن هبيرة والحرشي من قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، انظر نسب ابن هبيرة في : جمهرة انساب العرب ٢٥٥ .

دليل آخر على ان الحرشي غير منتقم ولا حاقد ، ولو انه دليل على عصبية الحرشي القبلية ، وكان تصرف الحرشي تصرف الذي يعفو عن مقدرة لا من ضعف .

وكما كان ابن هبيرة يكره الحرشي لانه كان (مبتدعا) لا (متبعا) ، فقد كان مسلمة بن عبدالملك يكره الحرشي للسبب عينه(٨٣) . فقد اندفع الحرشي في قيادة خيل مسلمة وصد مقدمة يزيد بن المهلب دون استشارة مسلمة والرجوع اليه ، كما برز بروزا هائلا في معركة (العقر) فلفت اليه الانظار .

وكما طبق الحرشي في معركة (العقر) ما أملاه عليه الموقف العسكري الراهن ، طبق في غزوة ارمينية حين كان على مقدمة مسلمة الاسلوب الذي طبقه في معركة (العقر) ، فلامه مسلمة على قتاله الخزر قبل قدومه ، وعزله عن قيادته وقيده وسجنه في سجن (برذعة) ، فانب هشام بن عبدالملك مسلمة على ما فعل في حبس الحرشي والتخلي عن تنفيذ خطته في قتال الخزر ، وأمر باطلاق سراحه(٨٤) .

وهكذا يكون جزاء (المبتدع) ، ليس بالنسبة للحرشي ، بل لكل من يبتدع ولا يتبع : الحقد والتنكيل بالمبتدع ، والسلامة والمستقبل للمتبع .

وهذه القاعدة تسري على (المبتدع) و (المتبع) في كل زمان ومكان ، الغنم دوما للمبتدع . والغنم دوما للمتبع ، وقلما يفلح (المبتدع) الا اذا تولى المبتدع السلطات العليا وكان غير مسؤول امام أحد ، وقلما يخفق (المتبع) اذا عمل بالامرة في الظل ولم يتول السلطات العليا.

وهنا أرى أن نتوقف قليلا ، لانصاف الحرشي من اتهامه بأنه نقض العهد في حرب الصغد وحرب الخزر ، فقتل اشخاصا أو جماعات بعد ان أعطاهم الامان .

وقد كان الحرشي معروفا بتدينه(٨٥) ، كما كان معروفا برأيه السديد(٨٦) ، وقد علم ان رجلا من (الصغد) قتل امراة من نساء كن في ايديهم ودفنها تحت حائط ، فقتل الحرشي القاتل بجريمته ، وقتل أحد قادة الصغد الذي اعترض الناس فقتل ناسا ، وكان في أيدي الصغد أسراء من المسلمين ، فقتلوا منهم خمسين ومئة ، ويقال: قتلوا منهم اربعين ، فأمر الحرشي بقتل المجرمين(٨٧) .

وأثر قصاص الحرشي في الخارجين على الدولة من أهل خراسان بعامة وفي الصغد وهم رأس الفتنة بخاصة ، فقال الراجز :

اذا سعيد سار في الاخماس
في رهج يأخذ بالانفاس
دار على الترك أمرُّ الكاس
وطارت الترك على الاحلاس
ولوا فرارا عطل القياس(٨٨)

لقد قدم الحرشي خراسان فكان المسلمون بازاء العدو ، وكانوا قد تكبوا(٨٩) ، وكان كثير من المسلمين اسرى وكثير من نسائهم سبايا ، فأعاد الامن والنظام خلال أشهر معدودات الى ربوع خراسان ، وعادت للدولة هيبتها وللسلطة مركزها ، ولا مراء في أن من أهم اسباب استعادته الامن والاستقرار بعد الخوف والفوضي يعود الى أخذ المسيء وانزال العقاب به ، فكان القصاص الذي نزل بأفراد وجماعات من الصغد باعتبارهم مجرمي حرب ، عوقبوا على ما جنت أيديهم من جرائم ، والعهد والامان الذي قطعه الحرشي على نفسه لهم أفرادا وجماعات هو على جريمة انتقاضهم على الدولة وحملهم السلاح عليها ، لا على الجرائم التي ارتكبوها في أيام انتقاضهم قتلا للمسلمين وانتهاكا لحرماتهم .

وما يقال عن التزام الحرشي بالضبط المتين ومعاقبة مجرمي الحرب في حرب الصغد ، يقال عنه أيضا في حرب الخزر ، فقد نفذ العهود والمواثيق بالنسبة لغير المجرمين ، اما المجرمون فلم يسكت عنهم وأنزل بهم القصاص العادل كمجرمين لا كمعاهدين .

تولى (البصرة) شهورا من سنة ثلاث ومئة الهجرية(٩٠) (٧٢١م) لابن هبيرة. ثم تولى خراسان في هذه السنة لابن هبيرة(٩١) أيضا ، وعزل عن

---

(٨٣) تهذيب ابن عساكر ١٦٤/٧ .
(٨٤) فتوح البلدان ٢٩٠ .
(٨٥) ابن الاثير ١٠٤/٥ و ١٠٨/٥ .
(٨٦) الطبري ٨/٧ .
(٨٧) الطبري ٩/٧-١٠ .
(٨٨) الطبري ١٢/٧ .
(٨٩) ابن الاثير ١٠٣/٥ .
(٩٠) تاريخ خليفة بن خياط ٣٤١/١ ، وانظر الطبري ١٧/٧.
(٩١) الطبري ٦٢٠/٦ و ١٧/٧ .

خراسان سنة اربع ومئة الهجرية(٩٢) (٧٢٢م) ، وتولى ارمينيه وكيلا لمسلمة بن عبدالملك سنةاثنتي عشره ومئه الهجرية (٧٣٠ م) ، وعزل في هذه السنة .

وقد عمل بأمرة ابن هبيرة في ولايته البصرة وخراسان ، وبامره مسلمه بن عبدالملك في ارمينية وكان الاميران اللذان عمل الحرشي بأمرتهما يبغضانه(٩٣) ، لانه كان (مبتدعا) يعمل بوحي نفايته وخبرته ، ولا يستوحي ما يعمله من اللذين عمل بامرتهما ، فكلل الاميران جهود الحرشي المطفره بالحبس والتنكيل .

واحسب ان الحرشي لم يخالف ابن هبيرة ومسلمة لمجرد رغبته في المخالفة حبا باظهار نفسه وفوته ، بل لان عامل الوقت كان عاملا حاسما يفضي عليه بالمخالفة ، فلو انه انتظر حتى يقدم مسلمه ارمينيه لتبدل الموقف العسكري لصالح الخزر ، كما انه خالف ابن هبيرة في قتل رجالات الصعد ، لانه ثبت عليه اجرامه بشكل لا يقبل الشك ، والحق احق ان يتبع ، وكل شيء في سبيله يهون .

وقد علمنا ان الحرشي يتحلى بالضبط المتين ، فحري بمثله الا يخالف مرجعه الاعلى الذي يعمل بأمرته الا لضرورة قصوى ، لانه اذا أباح لنفسه مخالفة رئيسه ، فقد اتاح لغيره أن يخالفه، فاذا شاع الخلاف عمت الفوضى ، والحرشي ليس من دعاتها بل من أعدائها الاشداء .

ولعل ما يدل على مبلغ حرصه في توقيرالذين يعملون بامرتهم ، ان الحرشي حين قدم خراسان واليا ، أمر أحد رجالة ان يقرأ عهده على الناس ، والعهد هنا المرسوم الذي كتبه عمر بن هبيرة للحرشي في توليته على خراسان . وقرأ الرجل العهد فلحن فيه ، فقال الحرشي : « مهما سمعتم فهو من الكاتب والامير بريء منه »(٩٤) ، أي بريء مما تسمعون من هذا اللحن(٩٥) ، وهذا دليل على توقير الحرشي لاميره المباشر ، وانه بعيد عن الاستهانة بالامير الذي يعمل بامرته المباشرة .

ولعل نقطة الضعف في الحرشي هي حبه الشديد للمال ، فالذي يبدو انه كان يحب هذا المال حبا جما ، فأوقعه هذا الحب في مأزق لايمكن السكوت عنه او نكرانه او محاولة الدفاع عنه ، فيما اذا صح أنه جمع المال لمصلحته الشخصية وثبت اتهامه بذلك .

ففي معركة الصغد سنة اربع ومئة ، اصطفى أموال الصغد وذراريهم ، وأخذ منها ما أعجبه ، ثم دعا مسلم بن بديل العدوي : عدي الرباب ، فقال: « وليتك المقسم » ، فقال : « بعدما عمل فيه عمالك ليلة !! وله غيري ! » فولاه عبيد الله بن زهير بن حيان العدوي ، فأخرج الخمس ، وقسم الاموال . وكتب الحرشي الى يزيد بن عبدالملك ، ولم يكتب الى عمر بن هبيرة ، فكان هذا مما وجد فيه عليه عمر بن هبيرة(٩٦) .

ولما حبس ابن هبيرة الحرشي اتهمه بالخيانة(٩٧) في الاموال ، فلما عذب في السجن أدى(٩٨) الذي عليه .

ولكن الحرشي عذب عذابا شديدا ، فقال كليب بن أذينة :

تصبر أبا يحي فقد كنت ـ علمنا
صبورا ونهاضا بثقل المغارم

وقد أمر ابن هبيرة يوما المشرف على تعذيب الحرشي أن يعذبه الى ان يقتله في العذاب(٩٩) .

وأرى ان مجرد اتهام الحرشي من ابن هبيرة لا يكفي لتصديقه ، فقد كان ابن هبيرة حاقدا اشد الحقد على الحرشي وكان يبغضه بغضا شديدا ، فلا يمكن ان نصدق تهمة حاقد مبغض.

ولو ان الحرشي خان في المال ، لما نال العطف الاجماعي على حبسه وتعذيبه ، ولما أطلق سراحه بعد ذلك ، وأصبح موضع ثقة الخليفة هشام بن عبدالملك ، فولاه قيادة مقدمة مسلمة بن عبدالملك في ارمينية ، وكان يستشيره وينفذ مشورته .

والظاهر ان الحرشي تألف بغض سادات العرب وقادة خراسان بالمال ، ليكونوا له عونا في حربه وسلمه ، وليقطع دابر الشغب على الدولة ، فعلم بذلك ابن هبيرة ، وأرسل رجلين من رجاله الى الحرشي يأمره أن يدفع اولئك المنتفعين بالمال الحكومي اليهما ليستعيدا منهم ما في ذمتهم من الاموال الى بيت المال ، فأبى الحرشي أن يفعل . ولما قدم

(٩٢) الطبري ١٥/٧ .
(٩٣) تهذيب ابن عساكر ١٦٤/٧ .
(٩٤) فتوح البلدان ٦٠١ ،وابن الاثير ١٠٣/٥ .
(٩٥) فتوح البلدان ٦٠١ .
(٩٦) الطبري ١٠/٧ ، وابن الاثير ١٠٩/٥ .
(٩٧) الطبري ١٩/٧ .
(٩٨) الطبري ١٦/٧ .
(٩٩) الطبري ١٦/٧ .

خليفة الحرشي الذي ولاه ابن هبيرة خراسان بعد عزل الحرشي عن خراسان ، أراد اخذ الناس بتلك الاموال التي فُرِّقت عليهم ، فقيل له : ان فعلت هذا بهؤلاء لم يكن لك بخراسان قرار ، وان لم تعمل على وضع تلك الاموال عنهم فسدت عليك وعليهم خراسان ، لان هؤلاء الذين تريد أن تأخذهم بهذه الاموال أعيان البلد . وكتب والي خراسان الذي خلف الحرشي عليها وهو مسلم بن سعيد بن اسلم بن زرعة الكلابي بذلك الى ابن هبيرة، وأوفد وفدا فيهم مهزم بن جابر ــ أحد رجالات العرب في خراسان ، فقال له : « أيها الامير ! ان الذي رُفع اليك الظلم والباطل ، ما علينا من هذا كله لو صدق الا القليل الذي لو أُخذنا به أديناه » ، فقال ابن هبيرة : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها)(١٠٠) ، فقال مهزم : « اقرأ ما بعدها : (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)(١٠١) » ، فقال ابن هبيرة : «لابد من هذا المال » ، فقال مهزم : « أما والله لئن اخذته لتأخذنه من قوم شديدة شوكتهم ونكايتهم في عدوك وليضرن ذلك بأهل خراسان في عدتهم وكراعهم وحلقتهم ، ونحن من ثغر نكابد فيه عدوا لا ينقضي حربهم . ان احدنا ليلبس الحديد حتى يخلص صدؤه الى جلده ، حتى ان الخادم التي تخدم الرجل لتصرف وجهها عن مولاها وعن الرجل الذي تخدمه لريح الحديد ، وأنتم في بلادكم متفضلون في الرقاق وفي المعصفرة ، والذين قرفوا بهذا المال وجوه أهل خراسان وأهل الولايات والكلف العظام في المغازي، وقبلنا قوم قدموا علينا من كل فج عميق ، فجاءوا على الحمُرات ، فولُّوا الولايات ، فاقتطعوا الاموال ، فهي عندهم موقرة جمة »(١٠٢) .

ولا أرى دفاعا عن الحرشي أبلغ من هذا الدفاع الذي ذكره أحد رجاله لخلفه : وزعت الاموال على المقاتلين الاشداء ، الذين لهم نفوذ على قومهم ، ليستعينوا بها في حرب مديدة ، لا تنقضي صفحة منها ، الا لتبدأ صفحة جديدة .

ونعود الى حكاية (المبتدع) و (المتبع) ، فقد كان الحرشي مبتدعا في توزيع المال على المحاربين الاشداء من ذوي القوة والمنعة والعشيرة ، دون ان يرجع الى ابن هبيرة ليعطي من يريد ما يريد ، بل اجتهد الحرشي فأعطى المستحق للعطاء ، وهو الحاضر وابن هبيرة الغائب،وهو يرى وأميره يسمع، فعمل الذي يقتضيه الحق وترتضيه المصلحة .

(١٠٠) سورة النساء ٥٨ .
(١٠١) سورة النساء ٥٨ .
(١٠٢) الطبري ٢٠/٧ .

وربما أبقى الحرشي شيئا لنفسه من هذا المال ، تحسبا للايام السود ، فلم يذكر المؤرخون انه ترك بعد رحيله عن الدنيا دارا أو دينارا ، فما خان الحرشي في المال ، ولكنه فرقه في المستحقين .

وقد غضب ابن هبيرة على الحرشي ، وأمره بأن يجمعه ممن اخذه ، فأبى الحرشي ، فحاول أن يجمعه خلفه دون جدوى ، لا لان الحرشي قد فرقه على غير المستحقين بل لان المال لم يُفرق باسمه على الموالين له كأنه هدية شخصية من مال ابن هبيرة الخاص ، ففوت عليه الحرشي هذه الفرصة لحشد الاتباع والموالين بمال الدولة لا بماله ، لذلك غضب وأراد استرجاع المال نكاية بالحرشي ، فما استطاع استرجاعه وباءت محاولته بالاخفاق .

ونعود الى الحرشي انسان ، فقد جاء في بعض المصادر التاريخية ، أن الحرشي قتل المقنع بخرسان سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية (٧٧٩ م) على عهد الخليفة المهدي العباسي(١٠٣) ، وان الخليفة المهدي وجه الحرشي سنة ثمان وستين ومئة الهجرية (٧٨٤م) في أربعين الف رجل الى (طبرستان)(١٠٤)، وان الحرشي قدم على الخليفة هرون الرشيد بأربعمائة بطل من أبطال (طبرستان) فاسلموا على يدي الرشيد سنة تسع وثمانين ومئة الهجرية(١٠٥) (٨٠٤ م) . ومن الواضح ان الحرشي الذي عمل في عهد بني أميه وهو الذي تقرأ سيرته هذه ، غير الحرشي الذي عمل في عهد بني العباس التي تحدثت عنه تلك المصادر في حرب المقنع وفي ولاية طبرستان، فالفرق الزمني بين الاثنين كبير جدا ، فالاول تولى (خرسان) سنة ثلاث ومئة الهجرية ، فليس من المعقول أن يتولى جيشا ويقاتل المقنع سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية ، اي بعد ستين سنة ،ويتولى (طبرستان) سنة تسع وثمانين سنة من ولايته (خراسان) ، أي بعد ست وثمانين سنة !

وقد ذكرت بعض المصادر ان الذي قتل المقنع سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية هو سعيد الجرشي(١٠٦) لا الحرشي ، وهو سعيدالحرسي(١٠٧) لا الحرشي ، وهو سعيد الحريشي(١٠٨) لا الحرشي،

(١٠٣) انظر الطبري ١٣٥/٨ و ١٤٤/٨، وابن الاثير ٥١/٦-٥٢ وذكرها ابن الاثير في حوادث احدى وستين ومئة الهجرية، وانظر تاريخ ابن خياط ٤٦٩/٢ .
(١٠٤) الطبري ١٦٧/٨ .
(١٠٥) الطبري ٣١٦/٨ .
(١٠٦) العبر ٢٤٠/١ .
(١٠٧) النجوم الزاهرة ٣٨/٢ و ٤٥/٢ .
(١٠٨) ابن خلدون ٤٣٩/٣ و ٤٤٠/٣ .

وان الذي سار في أربعين ألفا الى (طبرستان) هو الجرشي(١٠٩) لا الحرشي .

كما ورد ان الذي قتل المقنع سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية هو سعيد الحريشي(١١٠) .

والفرق كبير جدا بين سعيد الحرشي وما جاء في المصادر الاخرى(١١١) .

وقد شب للحرشي وترعرع وأصبح أحد ولاة بني العباس على الموصل ابن للحرشي هو يحيى الحرشي الذي تولى (الموصل) لهرون الرشيد سنة ثمانين ومئة الهجرية(١١٢) (٧٩٦ م) ، وكان ليحيى هذا قصر في لجف(١١٣) سور (نينوى) التي تقع على الجانب الايسر من نهر (دجلة) مقابل مدينة(الموصل) يفصل بينهما النهر ، يعرف بقصر الحرشي ، وسكن اولاده (الموصل) ويعملون حاكة(١١٤) لصنع القماش الموصلي .

وكان الحرشي يكنى : أبا يحيى(١١٥) ، وامه حبشية ، وولده بأرمينية كما ذكرنا وفي (الموصل) أيضا .

ولا نعلم متى ولد ولا متى رحل ، وتفاصيل حياته انسانا قليلة ، وذكر اخباره الشخصية نادر بعكس أخباره العامة ، فهي مستفيضة ، ويبدو من حياته العامة انه كان اداريا حازما ووالياً قديرا ، عصامي سود نفسه بكفايته وشجاعته وحزمه ، ولكنه كان عاثر الحظ في حياته الشخصية ، اذ كان يحسن في اداء واجبه احسانا فريدا ، ولكنه كان يجازى على احسانه بالسجن والتعذيب ، لانه يعمل ما (يجب) أن يعمل ، لا ما (يحب) امراؤه ان يعمل .

وكان المتوقع أن يقف المؤرخون طويلا على ابراز سجيته في (الابتداع) وتنكره لسجية أمثاله في (الاتباع) ، ولكنهم بخلوا عليه كثيرا ، فمثله في سجيته الابتداعية قليل نادر ، ولكن القطار السريع كثيرا ما يتوقف في المحطات الصغيرة ولا يتوقف في المحطات الكبيرة .

وحظوظ الافذاذ مختلفة بالنسبة للمؤرخين، فمنهم من أخذ حقه كاملا ، ومنهم من غمط حقه ، ومنهم من أخذ أكثر من حقه ، ومن الذين غمطهم التاريخ سعيد الحرشي .

القائد

اتخذ سعيد الحرشي الجندية مهنة له ، فرفعته هذه المهنة بالتدريج ، حتى تسنم المناصب القيادية الرفيعة ، وأصبح أحد قادة الامويين اللامعين ، يستعين به الخلفاء في الملمات .

تولى خراسان بعد أن اشتعلت نارا ، بايعاز من الخليفة يزيد بن عبدالملك ، فاستعاد فتح مانقض منها وأعاد اليها الامن والسلام ، خلال أشهر معدودات .

وتولى حرب ارمينية بعد ان استُشهد قائدها العام وأُبيد جيش المسلمين فيها قتلا وأسرا ، وتولاها بأمر من الخليفة هشام بن عبدالملك ، فاستعاد فتحها وأعاد اليها الامن والسلام خلال أشهر معدودات .

لقد أصبح الحرشي رجل الساعة من بين القادة البارزين في الدولة ، وهذا منتهى النجاح الذي يمكن ان يطمح اليه جندي ارتقى الى منصب القيادة ، ثم ارتقى بين القادة الى مكان الصدارة ، فأصبح الملجأ الذي تتجه اليه الانظار حين تدلهم الخطوب .

ومن الواضح انه شهد معارك لتوطيد الامن في الداخل ولاستعادة الفتح في الخارج قبل معركة (العقر) التي تولى فيها القيادة . اذ اثبت وجوده في المعارك الاولى جنديا متميزا أهلته كفايته لتولي القيادة في معركة (العقر) ، ولكنه في هذه المعركة اثبت وجوده قائدا متميزا بالاضافة الى اثبات وجوده جنديا متميزا في معاركه الاولى .

وكان موقفه في معركة (العقر) مشهودا ، ولكن هذا الموقف غُمط بعد المعركة غمطا متعمداحتى يُحرم من ثمرات النصر ، الا ان يزيد بن عبدالملك الذي تسامع بموقف الحرشي المشرف في معركة (العقر) من مصادر غير رسمية ، أنصف الحرشي واعطاه حقه الذي تعمدت المصادر الرسمية غمطه، فشارك غيره في ثمرات النصر ، ولم يقتصر على تحمل ويلات المعركة ليستأثر غيره بالثمرات .

---

(١٠٩) العبر ٢٥٢/١ .

(١١٠) البداية والنهاية ١٤٥/١٠ .

(١١١) الجرشي : نسبة الى جرش بطن من حمير ، وقيل موضع باليمن ، انظر لب الالباب ٦٣ ، والحرسي : نسبة الى الحرس ، محلة بمصر وبطن من طيء ، انظر لب الالباب ٧٨ . والحرشي : نسبة الى الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، انظر اللباب٧٨. والحريشي : نسبة الى حريث جد ، انظر اللباب ٧٨.

(١١٢) ابن الاثير ١٥٣/٦ وتاريخ الموصل ٢٨٦ .

(١١٣) لجف : سرة الوادي ، انظر تاج العروس ٣٤٣/٦ .

(١١٤) تاريخ الموصل ٢٩٣ .

(١١٥) الطبري ١٦/٧ .

فقد كانت ثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبدالملك ثورة عارمة حقا ، فالمهالبة من سادات العرب وقادتهم ، وكانت لهم مكانة رفيعة بين الناس وشعبية طاغية ، وقد خلع يزيد بن المهلب يزيد بن عبدالملك(١١٦) ، فكانت معركة (العقر) بالنسبة ليزيد بن عبدالملك معركة حياة أو موت ، لانها من المعارك الداخلية الحاسمة ، لذلك كتب ابن هبيرة أمير العراق الى يزيد بن عبدالملك بأسماء الذين أبلوا يوم (العقر) بلاء حسنا ، ولم يذكر الحرشي في قائمة الشرف ، فلما قرأ يزيد بن عبدالملك أسماءهم ، قال: « أين الحرشي ؟!! فوالله ما كان الفتح الاعلى يديه، وما قتل المتمردين غيره » ، فكتب الى ابن هبيرة يأمره أن يولي الحرشي خراسان(١١٧) .

وتولى الحرشي خراسان، فكان عند حسن ظن الخليفة به وعند حسن ظن الناس به أيضا .

وتولى هشام بن عبدالملك بعد وفاة أخيه يزيد بن عبدالملك ، وأصيب المسلمون في أرمينية واستشهد قائدهم الجراح بن عبدالله الحكمي ، وأصبح من بقي فيها من المسلمين أسرى وسبايا الا الذي بقى منهم خائفا يترقب في بلد محاصر لا يعرف أهله متى يقتحمه العدو أو في بلد لا يدري أهله متى يُفرض عليهم الحصار .

حينذاك بادر هشام الى استدعاء الحرشي ، فبسط بين يديه موقف المسلمين اليائس في أرمينية، فاقترح الحرشي عليه ان يتولى أمر اعادة الامور الى نصابها في ذلك البلد النائي البعيد ، وسأله ان يحمله على دواب البريد التي كانت أسرع واسطة للتنقل يومذاك فبعثه هشام على رأس قوات خفيفة سريعة ، وسار على عجل يبسط للمسلمين في طريق طريق رحلته الشاقة الطويلة ما حاق بالمسلمين في ارمينية ويندبهم للجهاد .

ولم يكد يصل الى ارمينية الا وانقض كالصقر على الخزر ، واستعاد فتح البلاد ورفع الحصار عن المدن المحاصرة واستنقذ الاسرى والسبايا ، فصدق وعده للخليفة واعاد الامن والسلام الى ارمينية .

فما هي مزايا قيادة الحرشي ، الذي اخذت بيديه في طريق التقدم من جندي مغمور الى قائد لامع ، الى قائد يحتل مركز القيادة المرموقة في ساعة المحنه . فيتخطى الاهوال والصعاب بسرعة وكفاية؟؟

لقد اتخذ الحرشي الجندية مهنة له ، وكانت هذه المهنة محببة الى نفسه ، فهو من هواتها ، عاش لها وبها ، مما يدل على أن طبعه الموهوب جعله يهب نفسه للجندية ويتفرغ لها في حياته تفرغا كاملا .

وربما يتبادر الى الاذهان انه امتهن الجندية لفقره وعوزه ، وقد كان فقيرا معدما حقا في أيامه الاولى ، ولكن المرتزق في الجندية لا يبرز فيها بروزا هائلا . كما أنه اصبح واليا ولكنه بقى واليا غازيا ، فعاش مع الجند في الفيافي والقفار ولم يعش مع المدنيين في المدن والقصور .

انه صاحب طبع موهوب في الجندية ، فهو جندي من أخمص قدمه الى قمة رأسه ، امتهن الجندية ولم يمتهنها(١١٨) .

وقد طعم هذا الطبع الموهوب وشذبه بالعلم العسكري المكتسب في استعمال السلاح والفروسية، وبالتجربة العملية في ممارسة الحروب داخليا في القضاء على الفتن والثورات الداخلية ، وخارجيا في استعادة البلاد المفتوحة وفي ضم فتح جديد ، وبذلك اجتمع له عناصر النجاح للقائد ومزايا القائد المتميز : الطبع الموهوب، والعلم المكتسب ،والتجربة العملية .

واجتماع هذه المزايا الثلاث في الحرشي هي سر نجاحه قائدا ، وتميزه بالنجاح قائدا متميزا .

وقد كان يتمتع بشجاعة نادرة واقدام فذ ، والشجاعة والاقدام وحدهما قد يؤديان الى التهلكة نتيجة للمغامرة غير المدروسة ، وقد كان الحرشي يتميز بروح المغامرة حقا ، ولكنها مغامرة يقودها عقل متزن وذكاء لامع ، لذلك كانت مغامراته تؤدي الى النصر دائما ، فلم تُهزم له راية أبدا .

وحب الحرشي للمغامرة العاقلة ، أدت به الى تطبيق : (حرب الصاعقة) التي تتميز بالسرعة والجرأة والمغامرة والاندفاع ، فقد كانت حربه في ارمينية نوعا مثاليا من حرب الصاعقة التي تميز فيها ثلاثة من قادة الفتح الاولين : خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني والحرشي .

---

(١١٦) الطبري ٥٧٨/٦ .

(١١٧) تهذيب ابن عساكر ١٦٤/٧ ـ ١٦٥ ، وانظر الطبري ٦٢٠/٦ ، وابن الاثير ١٠٣/٥ ، وفي الاصل ، قتل المرتدين ، ولم يكن هناك مرتدا بل كان متمردا ، ولعل هذا الخطا تصحيف .

(١١٨) امتهن الجندية ، اتخذها مهنة له . ولم يمتهنها : لم يبتذلها . وامتهن : اتخذ مهنة ، وامتهن الشيء : ابتذله .

ونهوضه بالحرب الصاعقة أو الحرب الخاطفة، دليل على حبه لتحمل المسؤولية ، فهويتقبلها ولا يلقيها على عاتق غيره ، ويتحمل وحده نتائجها . وهو كذلك يعمل ما يملي عليه الموقف الراهن ويقرر وينفذ ما يقرره ، غير منتظر وصول الاوامر اليه من القادة الذين يعمل بأمرتهم ، فقد تضيع عليه الفرصة السانحة اذا بقي مستكنا مجمدا اذا انتظر أوامر غيره ، فهو قائد (مبتدع) وليس قائدا (متبعا) .

والدليل على انه كان مغامرا عاقلا لا أهوج ، هو استشارته وتقبله للمشورة ، وتنفيذ راي المشير اذا اقتنع به، وحينذاك تصبح روح المغامرة والاندفاع فيه أناة وتحفظا(١١٩) ، ولكنها أناة المتربص وتحفظ المتحفز .

وكان الحرشي يقود رجاله من الامام ، فيقول لهم : « اتبعوني » ، وهو يقاتل أمامهم ، ولا يقود رجاله من الخلف ، فيقول لهم : « تقدموا » ، وهو يقبع في الخلف لحماية نفسه في مكان أمين .

وكان مثالا شخصيا لرجاله في الشجاعة والاقدام والاستقتال في الحرب ، وهو القائل :

ولست لعامر ان لم تروني
أمام الخيل اطعن بالعوالي
فأضرب هامة الجبار منهم
بعضب الحد حودث بالصقال
فما انا في الحروب بمستكين
ولا اخشى مصاولة الرجال

وقد قال ذلك في حشد من رجاله بعد تولي خراسان ووصوله الى مقر عمله(١٢٠) .

والقائد الذي يجعل من نفسه مثالا شخصيا لرجاله ، ويطبق أفعاله على أقواله، ويلتزم بما يقول التزاما صارما ، هو الذي يقود رجاله الى النصر ، أما القائد الذي يقول ولا يفعل ، فلا يقود رجاله الا الى الهزيمة .

كان لا ينام ولا ينيم ، ولا يريح ولا يستريح، يحرض أصحابه على القتال ، يتميز بمنطق اخاذ وبيان مشرق وقابلية نادرة على الخطابة في مواجهة الجماهير(١٢١) ، مسعر حرب(١٢٢) يجد راحته في القتال لا في الظلال .

(١١٩) انظر الطبري ٨/٧ ، وابن الاثير ١٠٧/٥ .
(١٢٠) الطبري ٦٢١/٦ ، وابن الاثير ١٠٤/٥ .
(١٢١) الطبري ٦٢١/٦ ـ ٦٢٢ ، وابن الاثير ١٠٣/٥ ـ ١٠٤ .
(١٢٢) مسعر حرب : موقد حرب .

وبقدر استئثار الحرشي بالخطر ، كان ايثاره بالامن والسلامة لرجاله ، فقد كان يحرص على ارواح المسلمين ولا يغرر بهم ، وكان حرصه الشديد بالمسلمين مضرب الامثال(١٢٣) .

وكان الحرشي يتحلى بالضبط المتين ، ولا يتخلى عنه ويلتزم به التزاما صارما ، ويطالب رجاله بالالتزام به التزاما صارما ، مما اشاع النظام في رجاله وجعلهم ينفذون أوامره نصا وروحا .

والقائد الذي لا يتحلى بالضبط لا يستطيع أن يفرضه على غيره ويشيعه في رجاله ، والجيش الذي لا يتحلى بالضبط المتين لا ينفذ الاوامر الصادرة اليه بحرص وامانة ، وتنهار معنوياته بسرعة خاطفة فيولي الادبار .

وكان الحرشي يطبق مبدأ المباغتة ، وهي أهم مباديء الحرب على الاطلاق ، وقد طبق هذا المبدأ بالمكان ، فهاجم العدو في مكان لا يتوقعه ، وبالزمان فهاجم العدو بوقت لا يتوقعه وبسرعة لا يتوقعها.

وكان يطبق مبدأ المعنويات ، فوجوده في القيادة يرفع معنويات رجاله من جهة ، فهو فارس قيس بشهادة عدوه اللدود ابن هبيرة الذي يكرهه(١٢٤) ، وهو فارس العرب بشهادة (كارزنج) أحد قادة الصغد البارزين(١٢٥) ، ويؤثر في معنويات اعدائه من جهة أخرى .

كما انه بانتصاراته المتوالية ورايته التي لم تهزم أبدا ، يرفع معنويات رجالة ويؤدي بمعنويات أعدائه الى الانهيار .

ولا ينتصر جيش الا اذا كانت معنوياته عالية، فالمعنويات لا تقل أهمية عن الماديات في احراز النصر .

وكانت انتصارات الحرشي حافزا للشعراء في مديحه ، فقال الشاعر في وصف انتصاره على الخزر في ارمينية :

أنت الذي أدرك الله العباد به
بعد البلاء بتأييد واظفار
موفق للهدي والرشد مضطلع
كيد الحروب أريب زنده واري
تضمن الحزم والايمان منبره
كالصبح أقبل في غر وإسفار

(١٢٣) ابن الاثير ١٠٧/٥ .
(١٢٤) الطبري ١٦/٧ .
(١٢٥) الطبري ٦٢٢/٦ .

لأمت ما شئت من شِعْبٍ ومن شَعَبٍ
للمسلمين بجدٍ غير عثار
على أوانٍ شديد ليس يعلمه
من شأننا كان غير الخالق الباري
قد أبدت الحرب فيها عن نواجذها
وشمرت عن شذاها أي تشمار
وأنت يوم أبي جروان(١٢٦) اذ رجعت
فيه الطراخين ذو نقض وإمرار(١٢٧)
لقيتهم بليوث في اللقاء وقد
وافوا بأرعن بادي الزم(١٢٨) جرار
فجستهم جوس قرم(١٢٩) مايقيلهم
بالخيل تنقض أوتارا بأوتار
والخيل ساهمة نضح الدماء بها
من علّها بعد إنهال واصدار(١٣٠)
من كل طرف شديد الشعب منصلت
نهدٍ أشق كصدر الرمح خطّار
فهم يولّون والفرسان تضربهم
بكل عضب شديد المتن بتار
أمام ليثٍ هزبر فرهد(١٣١) أزرٍ(١٣٢)
صلبِ الدواس(١٣٣) هصور هيصم ضاري(١٣٤)
عبل الذراع أبي الشبلين ذي لبد
دلمس هو عداءٌ على الساري(١٣٥)
ويوم أسراب(١٣٦) اذ جاشت جموعهم
وأسعروا نار حربٍ أي اسعار

(١٢٦) في الاصل : حزوان ، والصحيح : جروان وهي : باجروان ، مدينة بأرمينية .
(١٢٧) امرار : تنفيض ، وأمر الشيء : صيره مرا .
(١٢٨) الزم : الشموخ والتكبر .
(١٢٩) القرم : السيد المعظم .
(١٣٠) العل : شرب ثانية . النهل : الشرب الاول . اصدار: شبع .
(١٣١) فرهد : في الاصل : فرهم ، والفرهد : ولد الاسد ، والفرهد من الغلمان : الحسن الممتلىء .
(١٣٢) الازر : القوة .
(١٣٣) الصلب : الشديد القوى.والدواس : وصف للمبالغة، الشجاع الذي يدوس أقرانه .
(١٣٤) الهصور : الاسد . الهيصم : الغليظ الشديد الصلب. والضاري : المفترس .
(١٣٥) العبل : الضخم من كل شيء ، ويقال : عبل الذراعين، والشبل : ولد الاسد . لبد : جمع : لبدة الشعر المتراكب بين كتفي الاسد . الدلس : الداهية . العداء : الشديد العدو من الناس والخيل .

وأقبلوا كالتماع البرق بيضهم
لهم عصار تراه بعد إعصار(١٣٧)
فسِرتَ بالخيل والرايات تقدمها
بخيرة من عباد الله أخيار
أمدكَ الله رب العالمين بهم
مسومين أمام الناس أنصار
فأهلكَ الله جمع الشرك اذ رجعوا
على يديك وأخرى كل كفار

ولا نعرف شيئا عن قائل هذا الشعر ، ويبدو انه من فرسان الاعراب الذين يتقنون الالفاظ الجاسية الحوشية ومفردات الخيل والسلاح والاسد والابطال ، فهو فارس معجب بفارس ، وليس شاعرا متكسبا .

لقد كان الحرشي سريع القرار صائبه ، ذا طبع موهوب وعلم مكتسب وتجربة عملية ، يتحلى بالشجاعة والاقدام ويتميز بالفروسية التي تفوق بها على الاقران ، ويتمتع بروح المغامرة والذكاء الالمعي ، ويطبق حرب الصاعقة في حروبه ، مبتدعا لا متبعا ، يقود رجاله من الامام ويجعل من نفسه مثالا شخصيا لرجاله ، ذا ضبط متين ، حريصا على ارواح المسلمين ، يطبق مبدأ المباغتة ومبدأ المعنويات .

انه فارس العرب ، يثق بنفسه وبرجاله وقيادته ويثقون به ، ويحبونه ويحبهم ، ويخلص لهم ويخلصون له ، ذا شخصية قوية نافذة، كوّن نفسه بكفايته ومزاياه لا بنسبه وحسبه ، وتولى المناصب القيادية والادارية بجهده وسعيه وعرقه، فسعت اليه تلك المناصب ولم يتولّها بالوراثة او بالتزلف أو بالوسائل الاخرى .

ان الحرشي قائد قد لا يتكرر الا نادرا .

الحرشي في التاريخ

يذكر التاريخ للحرشي ، بأنه قائد عصامي ، بدأ حياته العملية جنديا ثم تدرج في سلّم العسكرية حتى أصبح قائدا في الذروة .

ويذكر له أنه بذل قصارى جهده في القضاء على الثورات والفتن الداخلية دفاعا عن سلامة الدولة وكيانها .

(١٣٦) أسراب : جمع سربة : الجماعة ينسلون من المعسكر فيغيرون ويرجعون .
(١٣٧) العصار : الغبار الشديد . الاعصار : ريح تهب بشدة وتثير الغبار .

ويذكر له أنه استعادفتح بلاد الصفـــد (تركستان الغربية) من خراسان وأعاد اليها الامن والسلام بخاصة والى خراسان بعامة ونشر العربية لغة والاسلام دينا في ربوع خراسان .

ويذكر له ، انه استعاد فتح ارمينية ، واعاد اليها سلطة الدولة الاسلامية ، ونشر العربية لغة والاسلام دينا في ربوعها .

ويذكر له ، انه استنفذ عشرات الالوف من اسرى المسلمين الذين كانوا تحت سيطرة الصغد في خراسان والخزر في ارمينية ، وقلب الموازين في تلك الارجاء الشاسعة لصالح المسلمين .

ويذكر له ، أنه كان قائدا واداريا (مبتدعا) يعمل ما تمليه عليه المصلحة العامة ، وليس قائدا واداريا (متبعا) ينفذ أوامر السلطـــة حتى ولو ناقضت المصلحة العامة ، فكان بحق رجل دولـة بكل معنى الكلمة لا إمّعَةً يميل مع الاهواء .

ويذكر له ، أنه أحرز انتصارات باهـــرة داخليا وخارجيا ، فعوقب عن انتصاراته بالحبس والتعذيب والتنكيل ، لانه كان يعمل ما (يجب) أن يُعمل لا ما (يحب) رؤساؤه أن يعمل .

ويذكر له ، انه كان في الحرب يقودالجيوش في اخطر ميادينها ويكون مقره في خطوطها الامامية، فاذا حل السلام استثمر غيره نتائج انتصاراته ، فيكون مقره في السجون متحملا العذاب الاليم .

ويذكر له ،ان فارس العرب دون منازع ، يستأثر بالاخطار ويستأثر غيره بالغنائم .

ويذكر له ، أنه كان رجل الساعة في الملمات، ورجل السجون في النزهات .

ويذكر له ، انه كان يؤثر ان يكون غازيا في العراق ، على أن يكون واليا في المدن .

ويذكر له ، أنه كان يقود رجاله من الامام لا من الخلف ، وكان اسوة حسنة لرجالهفي التضحية والاقدام .

ويذكر له ، أنه قائد توفرت فيـه الشروط الكاملة للقائد المتميز : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب ، والتجربة العملية .

يرحم الله الاداري الحازم ، القائد الفاتح ، فارس العرب ، سعيد بن عمرو الحرشي .

ـ ٢ ـ

الجراح بن عبدالله الحكمي

فاتح بلنجر(١٣٨) وفاتح شـطر ارمينيـة ثانيـة

نسبه وايامه الاولى

هو الجراح بن عبدالله الحكمي نسـبه الى الحكم بن سعد العشيرة(١٣٩) من مذحج(١٤٠) ، وكان الحكم اكبر أبناء سعد العشيرة وبه يكنى(١٤١) ، ومذحج من القبائل اليمنيـة : من كهـلان بن سبأ(١٤٢) .

والجراح يكنى : أبا عقبة ، دمشقي الاصل والمولد(١٤٣) .

ولا ذكر في المصادر المعتمدة التي بين أيدينا لأيامه الاولى : مولده ، نشأته ، تعليمه ، فقـد أغفلت تلك المصادر حياته الخاصة ، واقتصـر المؤرخون على ذكر حياته العامة في تولي المنـاصب الادارية والقيادية وجهاده .

ويبدو أنه لم يشغل نفسه بالعلوم السائدة في عصره كعلوم القرآن والحديث واللغة والتاريخ، فسكتت عنـه كتب الطبقات التي تُعنى بالمحدثين والعلماء والمؤرخين ، بل شغل نفسه بالاعمـال الادارية واليا ، والاعمال العسكرية جنديا وقائدا ومجاهدا، فاهتم المؤرخون بأعماله العامة فيالدولة الاسلامية ، ولم يهتم به غيرهم ، لانه لم يكن لـه أثر يذكر في المجالات الفكرية الشائعة في أيامه .

جهـاده

١ ـ الفاتح :

أ ـ في سنة اربع ومئة الهجرية (٧٢٢ م) ولّي يزيد بن عبدالملك الجراح بن عبدالله الحكمي ارمينية(١٤٤) .

---

(١٣٨) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الابواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢٧٨/٢ .

(١٣٩) الانساب المتفقة ٤٤ .

(١٤٠) لب الالباب في تحرير الانساب ٨٢ .

(١٤١) جمهرة انساب العرب ٤٠٧ .

(١٤٢) جمهرة انساب العرب ٤٠٧ .

(١٤٣) الاعلام ١٠٦/٢ نقلا من : سير النبلاء ـ خ ـ المجلـد الرابع ، وانظر القاموس الاسلامي ٥٨٨/١ .

(١٤٤) ابن الاثير ١١١/٥ وتاريخ خليفة بن خياط ٣٣٧/١ والعبر ←

وسبب تولية الجراح ، ان المسلمين في سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١ م) دخلوا بلاد الخزر (القفقاس) من ارمينية وعليهم ثُبَيْت النهراني(١٤٥) فاجتمعت الخزر في جمع كثير ، واعانهم الترك من مختلف أنواعهم ، فلقوا المسلمين في مكان يعرف بـ (مرج الحجارة) . ونشب القتال بين الجانبين بشدة وعنف ، فقتل من المسلمين بشر كثير(١٤٦) ، واستولى الخزر عن معسكرهم وغنموا جميع ما فيه(١٤٧) ، وذلك في شهر رمضان في عز موسم الشتاء من سنة ثلاث ومئة الهجرية(١٤٨) .

وهكذا اجتمعت على المسلمين حشود الخزر الضخمة وبرد الشتاء في عنفوانه ، فادى ذلك الى هزيمتهم .

وأقبل المنهزمون الى الشام ، وقدموا على يزيد بن عبدالملك وفيهم ثُبَيْت ، فوبخهم يزيدعلى الهزيمة ، فقال ثُبَيْت : « يا أمير المؤمنين ! ما جبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ، ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ، ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي ، وضاربت حتى انقطع سيفي ، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد »(١٤٩) .

ولما تمت الهزيمة على المسلمين، طمع الخزر في البلاد ، فجمعوا وحشدوا ، فاستعمل يزيد الجراح ، وأمده بجيش كثيف ، وامره بغزو الخزر وغيرهم من الاعداء ، وقصدهم في عقر دارهم . وتسامع الخزر وحلفاؤهم بقدوم المسلمين ، فلجأوا الى مدينة (باب الابواب) . ووصل الجراح الى مدينة (برذعة)(١٥٠) فأقام بها حتى استراح هو ومن معه ، وتوجه نحو الخزر ، فعبر نهر « الكُرّ »(١٥١) ، فسمع أن بعض من كان معه في جيشه من أهل الجبال (جبال القفقاس) قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح اليه ، فأمر مناديه فنادى بالناس : « ان الامير مقيم ههنا عدة ايام ، فاستكثروا من الميرة » فكتب ذلك الرجل الى ملك الخزر يخبره أن الجراح مقيم ، ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه(١٥٢) !

ولما كان الليل أمر الجراح بالرحيل ، فسار منجدا حتى انتهى الى مدينة (باب الابواب) ، فلم ير الخزر . ويبدو أنهم انسحبوا بسرعة من المدينة الى منطقة حشودهم ، فدخل المسلمون المدينة ، وبث الجراح سراياه على ما يجاور المدينة، فغنموا وعادوا في الغد .

وسار الخزر وحلفاؤهم الى المسلمين بقيادة ابن ملكهم (ابن خاقان) ، فالتقوا عند نهر (الران)(١٥٣)، فنشب القتال الشديد بين الجانبين، وحرض الجراح اصحابه ، فظفر المسلمون بالخزر وهزموهم ، فطاردهم المسلمون يقتلون ويأسرون، خلق منهم خلق كثير وغنم المسلمون جميع ما معهم(١٥٤) ، وفتح حصن (الحُصَيْن) سلما ونقل أهله عنه .

وسار الجراح بالمسلمين الى مدينة(برغوا)(١٥٥)، فأقام عليها ستة أيام وهو مجد في قتال أهلها ، فطلبوا الامان ، فأمنهم ونقلهم منها .

وسار الجراح الى (بلنجر) ، وهو حصن مشهور من حصونهم ، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة ، شدوا بعضها الى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها ، وتمنع المسلمين من الوصول الى الحصن ، وكانت تلك العجل أشد شيء على المسلمين في قتالهم(١٥٦) .

وخرج رجل من المسلمين ، فقال : « من يَشْرى الله نفسه ؟ » ، فأجابته جماعة ما بلغت عدتهم ثلاثين رجلا ، فكسروا جفون سيوفهم ، وشدوا على العجل ، وأجلوا الرجال عنها، وأخذوا عجلة منها .

وجد الخزر بقتالهم ، ورموا من النشاب

في خبر من غبر ١٢٦/١ وتاريخ الموصل ١٧ ، وانظر فتوح البلدان للبلاذري ٢٨٩ ، والبداية والنهاية ٢٣٠/٩ .

(١٤٥) في تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٦/١ : ان قائد المسلمين كان معلق بن صفار البهراني .

(١٤٦) في تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٦/١ : فاصيب من المسلمين جميعا .

(١٤٧) ابن الاثير ١١٠/٥ .

(١٤٨) تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٦/١ .

(١٤٩) ابن الاثير ١١١/٥ .

(١٥٠) برذعة : مدينة من مدن ارمينية الاولى ، وانظر ما جاء عنهامن تفاصيل في كتاب : معجم البلدان ١١٩/٢-١٢٢.

(١٥١) نهر الكر : ينبع من كورة جرزان (جورجيا) من جبال (جلدير) ويمر بمدينة تفليس ، ويبلغ طوله نحو ٩٤٠ كم . وانظر ما جاء عن هذا النهر في : معجم البلدان ٢٣٧/٧ - ٢٣٨ .

(١٥٢) ابن الاثير ١١١/٥ .

(١٥٣) نهر الران ، هو نهر (آران) : انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢١٣/٣ - ٢١٤ ، ومنطقة آران من ارمينية الاولى .

(١٥٤) ابن الاثير ١١٢/٥ ، وانظر العبر ١٢٦/١ .

(١٥٥) برغوا : لم أجد لهذه المدينة ذكرا في معجم البلدان ، ووردت في تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٧/١ : يزغوا .

(١٥٦) ابن الاثير ١١٢/٥ .

ما كان يحجب الشمس ، فلم يتراجع مغاوير المسلمين حتى وصلوا الى العَجَل ، وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها ، وجذبوها، فانحدرت ، وتبعها سائر العجل ، لان بعضها كان مشدودا الى بعض ، وانحدر الجميع الى المسلمين(١٥٧) .

والتحم القتال واشتد ، وعظم الامر على الجميع ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، فانهزم الخزر وحلفاؤهم ، واستولى المسلمون على الحصن عنوة ، وأصابوا جميع ما فيه من غنائم للمسلمين، فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفا ، وكانت تلك المعركة في ربيع الاول(١٥٩) من سنة اربع ومئة الهجرية(١٦٠) .

وسار الجراح عن (بلنجر) بعد ان أسر اولاد صاحب (بلنجر) وأهله ، فبعث الجراح اليه واحضره ، ورد أمواله واهله وحصنه وجعله عينا للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم .

ونزل المسلمون على حصن (الوبندر)(١٦١)، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك ، فصالحوا الجراح على مال يؤدونه(١٦٢) .

وسار الجراح الى (ورثان)(١٦٣) ، فأدركه الشتاء ، فأقام المسلمون فيها .

وكتب الجراح الى يزيد بن عبدالملك يخبره بما فتح الله عليه ، وأن أهل تلك البلاد تجمعوا وأخذوا الطرق على المسلمين ، ويسأله المدد .

ووعد يزيد الجراح ان يرسل له المدد من المقاتلين ، فأدركه الاجل قبل أن يرسل ما وعد به من المدد الى الجراح ، فأرسل هشام بن عبدالملك الى الجراح ، فأقره على عمله ، ووعده بارسال المدد(١٦٤) .

ب ـ وفي سنة خمس ومئة الهجرية (٧٢٣م) زحف الترك نحو ارمينية ، وزحف الجراح لصد زحف الترك ، فالتقى الجانبان بموضع يقال له : (الزم)(١٦٥) بين نهري: (الكر) و (الرس) في ارمينية، في شهر رمضان من هذه السنة ، وقد استمر القتال اياما ، فانهزم الترك(١٦٦) .

والظاهر ان المدد الذي وعد الخليفة هشام بأرساله الى ارمينية قد وصل الى الجراح في الوقت المناسب ، فاستأنف المسلمون استعادة ما انتقض من ارمينية ، ففزا الجراح (اللان)(١٦٧) وهي بلاد واسعة غنية ، فاستعاد فتحها وفتح مدائن وحصونا وراء (بلنجر) ، وأصاب غنائم كثيرة(١٦٨) .

ج ـ وفي سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤م) غزا الجراح بلاد (اللان) فصالح أهلها وادوا الجزية(١٦٩) بعد أن اوغل في بلاد الخزر ، وهو اول من قفل من باب اللان في ارمينية(١٧٠) .

د ـ وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥م) عزل هشام بن عبدالملك الجراح عن ارمينية واذربيجان وولاها مسلمة بن عبدالملك(١٧١) .

ولم يذكر المؤرخون سببا لعزل الجراح عن ارمينية واذربيجان ، لان الجراح لم يقصر في عمله قائدا واداريا، كما ان نزاهته كانت فوق الشبهات، ويبدو ان هشام بن عبدالملك اراد ان يستفيد من كفاية أخيه القيادية في منطقة اشتد فيها القتال وكثرت الخسائر ، فعزل الجراح واستعمل أخاه.

٢ ـ الشهيد :

أ ـ في سنة احدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) استعمل هشام بن عبدالملك الجراح على ارمينية واذربيجان ثانية ، وعزل أخاه مسلمة بن عبدالملك(١٧٢) .

---

(١٥٧) تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٧/١ .
(١٥٨) ابن الاثير ١١٢/٥ .
(١٥٩) كان فتح بلنجر يوم الاحد لثلاث خلون من ربيع الاول ، انظر خليفة ابن خياط ٣٣٧/١ .
(١٦٠) ابن الاثير ١١٢/٥ ، وتاريخ خليفة بن خياط ٣٣٧/١ .
(١٦١) وبندر : لا ذكر له في معجم البلدان .
(١٦٢) ابن الاثير ١١٢/٥ .
(١٦٣) تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٨/١ ، وفي ابن الاثير ١١٣/٥: انه عاد الى رستاق (ملي) .
(١٦٤) ابن الاثير ١١٣/٥ .
(١٦٥) الزم : بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل ، انظر معجم البلدان ٤٠٥/٤ ، وليس هي المقصودة لبعدها عن ساحة القتال ، بل هي موضع بين نهري (الكر) و (الرس) في ارمينية .
(١٦٦) تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٩/١ .
(١٦٧) اللان : بلاد واسعة في طرف ارمينية قرب مدينة (باب الابواب) مجاورون للخزر ، انظر معجم البلدان ٣١٦/٧ .
(١٦٨) ابن الاثير ١٢٥/٥ ، وتاريخ خليفة بن خياط ٣٣٩/١ والبداية والنهاية ٢٣١/٩ .
(١٦٩) ابن الاثير ١٣٤/٥ .
(١٧٠) تاريخ خليفة بن خياط ٣٤٩/٢ .
(١٧١) ابن الاثير ١٣٧/٥ .
(١٧٢) ابن الاثير ١٥٨/٥ وتاريخ الاسلام ٣٠٢/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٠/١ وابن خلدون ٢٩٩/٣ وتاريخ الموصل ٣٠ وتاريخ خليفة بن خياط ٣٥٣/٢ .

ودخل الجراح بلاد الخزر من ناحية (تفليس) ، واستعاد فتح مدينة من مدن الخزر هي مدينة (البيضاء)(١٧٣) ثم انصرف سالما(١٧٤) .

وجمعت الخزر جموعا كثيرة بقيادة ابن خاقان ، فدخلوا ارمينية ، ثم سار ابن خاقان فحاصر (اردبيل)(١٧٥) .

ب ـ وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، زحف الجراح من (برذعة)(١٧٦) ،وكان الخزر والترك قد حشدوا جموعهم من ناحية (اللان) . وعسكر الجراح ومن معه بمرج (اردبيل)، وقاتل جموع الخزر والترك أشد قتال رآه الناس، فصبر الفريقان صبرا جميلا(١٧٧) .

وتكاثر الخزر والترك على المسلمين ، فاستشهد الجراح لثمان بقين من رمضان سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية . وغلبت الخزر على (اذربيجان) واوغلوا في البلاد حتى قاربوا مدينة (الموصل) ، وعظم الخطب على المسلمين(١٧٨) وتكبدوا خسائر فادحة بالارواح والاموال .

الانسان

١ ـ لما بلغ هشاما خبر الجراح ، دعا سعيدا الحرشي(١٧٩) فقال له : « بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين !! » فقال الحرشي : « كلا يا امير المؤمنين ! الجراح أعرف بالله من أن ينهزم، قُتِلَ ! » ، فلا عجب ، اذ كان الجراح خيّرا فاضلا من عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه(١٨٠) .

٢ ـ وبرز الجراح لاول مرة سنة سبع وثمانين الهجرية ، اذ كان على (البصرة) خليفة للحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان على العراق والمشرق كله(١٨١) .

ولا يمكن أن يولّى الجراح مدينة البصرة ، التي كانت والكوفة في حينه أعظم مدن العراق وأوسعها وأهمها ، وكانت القاعدة الرئيسة هي والكوفة لفتوح المشرق الاسلامي ، الا اذا كان موضع ثقة الحجاج بخاصة والدولة بعامة وذا كفاية ادارية عالية .

وفي سنة تسعين الهجرية ، اصبح الجراح عامل البصرة للحجاج بن يوسف الثقفي(١٨٢) ، وهكذا تقدم في سلك المناصب الادارية ، فكان قبل سنة (وكيلا) فأصبح بعد سنة (اصيلا) .

واستمر الجراح في منصبه عاملا على البصرة حتى سنة اربع وتسعين الهجرية(١٨٣) .

٣ ـ وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية تولى يزيد بن المهلب بن أبي صُفرة خراسان لسليمان بن عبدالملك بن مروان ، فلما سار يزيد الى خراسان استخلف على مدينة (واسط) ـ وكانت يومئذ عاصمة العراق ـ الجراح(١٨٤) ، وهذا دليل على كفايته المتميزة في الادارة وثقة يزيد بن المهلب به بعد الحجاج بن يوسف الثقفي .

وفي سنة تسع وتسعين الهجرية أصبح الجراح عاملا على خراسان لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه(١٨٥) ، وليس من السهل الحصول على ثقة عمر بن عبدالعزيز بسهولة ويسر ، الا اذا كان مستحقا لهذه الثقة دينا وكفاية .

فأقر عمر بن عبدالعزيز الجراح على خراسان سنة مئة الهجرية(١٨٦) ايضا في أيام القبض على يزيد بن المهلب وحبسه(١٨٧) ، وهي أيام عصيبة بالنسبة للدولة ، لان يزيد بن المهلب من رجالات العرب وقادتهم البارزين ، ولانه من قبيلة الازد التي تدافع عنه حتى الموت ، ولان له شعبية طاغية في مختلف القبائل العربية الاخرى وغير العربية أيضا وبخاصة في خراسان بالذات.

ولكن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، عاد وعزل الجراح في هذه السنة عن خراسان وولاها عبدالرحمن بن نُعَيْم القشيري(١٨٨) ، وكان عزل الجراح في شهر رمضان من هذه السنة ، فكانت ولايته بخراسان سنة وخمسة أشهر : قدمها سنة

---

(١٧٣) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الابواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٢/٢٣٥ .
(١٧٤) ابن الاثير ٥/١٥٨ وتاريخ خليفة بن خياط ٢/٣٥٤ .
(١٧٥) تاريخ خليفة بن خياط ٢/٣٥٤ ـ ٣٥٥ .
(١٧٦) تاريخ خليفة بن خياط ٢/٣٥٥ .
(١٧٧) ابن الاثير ٥/١٥٩ وتاريخ خليفة بن خياط ٢/٣٥٦ .
(١٧٨) ابن الاثير ٥/١٥٩ .
(١٧٩) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادةفتح المشرق الاسلامي.
(١٨٠) ابن الاثير ٥/١٥٩ .
(١٨١) الطبري ١/٤٣٢ وابن الاثير ٤/٥٣٠ .
(١٨٢) الطبري ٦/٤١٧ وابن الاثير ٤/٥٤٨ .
(١٨٣) الطبري ٦/٤٩١ .
(١٨٤) الطبري ٦/٥٢٦ وابن الاثير ٥/٢٥ .
(١٨٥) الطبري ٦/٥٥٤ وابن الاثير ٥/٤٤ .
(١٨٦) الطبري ٦/٥٢٧ .
(١٨٧) انظر التفاصيل في الطبري ٦/٥٥٦ ـ ٥٥٨ .
(١٨٨) هو عبدالرحمن بن نعيم الغامدي الازدي ، انظرتفاصيل نسبه في : جمهرة انساب العرب ٣٧٨ .

تسع وتسعين الهجرية ، وخرج منها لايام بقيت من شهر رمضان سنة مئة الهجرية(١٨٩) .

وكان سبب عزل الجراح ، ان يزيد بن المهلب لما عزل عن خراسان ، ارسل عامل العراق عاملا على (جرجان)(١٩٠) ، فأخذه جهم بن زحر الجعفي(١٩١) ، وكان على جرجان عاملا ليزيد بن المهلب ، وحبسه وقيده وحبس رهطا قدموا معه. وخرج جهم الى الجراح بخراسان ، فأطلق أهل جرجان عاملهم ، فقال الجراح لجهم : « لولا انك ابن عمي لم اسوغك هذا » ، فقال جهم : « ولولا انك ابن عمي لم آتك » .

وكان جهم سِلْفَ الجراح من قبل ابنتي الحصين بن الحارث ، واما كونه ابن عمه ، فلان الحكم جد الجراح والجعفي جد جهم هما ابنا سعد العشيرة(١٩٢) .

وقال الجراح لجهم : « خالفت امامك، فاغز لعلك تظفر فيصلح أمرك عنده » ، فوجهه الى (الختل)(١٩٣) ، فغنم منهم ورجع .

وأوفد الجراح وفدا الى عمر بن عبدالعزيز مؤلف من رجلين من العرب ورجل من الموالي ، فتكلم العربيان والمولي ساكت ، فقال عمر : « ما أنت من الوفد ؟! » ، قال : « بلى ! » فقال : « فما يمنعك من الكلام ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! عشرون ألفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من الذمة يؤخذون بالخراج ، فأميرنا عصبي جاف ، يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حفيا(١٩٤) وأنا اليوم عصبي ، والله لرجل من قومي أحب اليّ من مئة من غيرهم(١٩٥). وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان » . قال عمر : « أذن بمثلك يوفد » .؟

وكتب عمر بن عبدالعزيز الى الجراح : «انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع عنه الجزية » ، فسارع الناس الى الاسلام . فقيل للجراح : ان الناس قد سارعوا الى الاسلام نفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان . فكتب الجراح بذلك الى عمر، فأجابه عمر : « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم دا عيا ولم يبعثه خاتنا » .

وقال عمر : « ايتوني رجلا صدوقا أسأله عن خراسان » ، فقيل له : عليك بأبي مجلز ، فكتب الى الجراح : « أن أقبل واحمل أبا مجلز وخلف على حرب خراسان عبدالرحمن بن نعيم العامري».

وخطب الجراح قبل رحيله فقال : « يا أهل خراسان ! جئتكم في ثيابي هذه التي عليّ ، وعلى فرسي ، لم أصب من مالكم الا حلية سيفي » ، ولم يكن عنده الا فرس وبغلة !

وسار عن خراسان ، فلما قدم على عمر قال: « متى خرجت ؟ » قال : « في شهر رمضان » ، قال : « صدق من وصفك بالجفاء ! هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج ! » .

وكان الجراح قد كتب الى عمر : « اني قدمت خراسان ، فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة، فأحب الامور اليهم أن يعودوا ليمنعوا حق الله عليهم، فليس يكفهم الا السيف والسوط ، فكرهت الاقدام على ذلك الا بأذنك » ، فكتب اليه عمر : « يا ابن أم الجراح ! انت أحرص على الفتنة منهم لا تضربن مؤمنا ولا معاهدا سوطا الا في الحق ، واحذر القصاص ، فانك صائر الى من يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتابا :(لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها)(١٩٦) .. » .

وقال عمر لابي مجلز : « أخبرني عن عبدالرحمن بن عبدالله ! » قال : « يكافي الاكفاء ، ويعادي الاعداء ، وهو امير يفعل ما يشاء ، ويقدم ان وجد من يساعده » ، قال : « لعبدالرحمن بن نعيم ؟» ، قال : « يحب العافية والتأني ، وهو أحب الي » ، فولاه الحرب والصلاة وولى عبدالرحمن القشيري الخراج ، وكتب الى أهل خراسان : « اني استعملت عبدالرحمن على حربكم وعبدالرحمن بن عبدالله(١٩٧) على خراجكم » ، وكتب اليهما يأمرهما بالمعروف والاحسان(١٩٨) .

---

(١٨٩) الطبري ٥٥٨/٦ ، وانظر ابن الاثير ٥٠/٥ .

(١٩٠) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وراسان ، وهي من خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٧٥/٤-٧٩ .

(١٩١) جهم بن زحر بن قيس : قاتل قتيبة بن مسلم الباهلي انظر تفاصيل نسبه في جمهرة انساب العرب ٤٠٩ .

(١٩٢) ابن التفاصيل في جمهرة أنساب العرب ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(١٩٣) الختل : كورة واسعة كثيرة المدن فيما وراء النهر(نهر جيحون) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٤٠١/٣ .

١٩٤- الحفي : اللطيف الرقيق ، وفي التنزيل العزيز : (انه كان حفيا) .

(١٩٥) يريد : رجل من العرب أحب اليه من مئة غير العرب .

(١٩٦) الآية الكريمة من سورة الكهف ١٨ : ٤٩ .

(١٩٧) عبدالرحمن بن عبدالله القشيري : احد بني الاعور بن قشير ، انظر الطبري ٥١١/٦ .

(١٩٨) ابن الاثير ٥٠/٥-٥٢ ، وانظر التفاصيل في الطبري ٥٥٨/٦ - ٥٦٢ ، وانظر فتوح البلدان ٦٠٠ .

ومن الواضح ان الجراح كان لا غبار على تدينه ونزاهته واستقامته ، ولكن اجتهـــاده في تطبيق الاسلام يختلف عن اجتهادعمر بن عبدالعزيز فالاول يرى ان الناس قد غيّروا ما بأنفسهم فلا يستقيمون الا بالشدة والعقاب ، والثاني يـــرى تطبيق تعاليم الاسلام نصا وروحا ، فلا يعاقب المرء الا بذنب ثبت عليه ، فاختلافهما في اســلوب تطبيق المبادىء لا في المبادىء .

ان عزل الجراح كان لاختلافه في الاجتهاد عن الخليفة الصالح الورع ، ولم يكن عن تقصـــير أو انحراف أو ريبة .

٥ ــ وتولى الجراح ارمينيةواذربيجان مرتين: الاولى من سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢م) الى سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م) ، والثانية من سنة احدى عشرة ومئة الهجرية الى ان استشهد على أرض ارمينية ســنة اثنتي عشــرة الهجريــة (٧٣٠ م) ، فسقط مضرجا بدمائه ولم يسقط من يده السيف .

وهكذا قضى الجراح زهرة حياته اداريـــا وقائدا في خدمة الدولة الاسلامية واعطى من نفسه للمصلحة العامة كل شيء ، ولم يأخذ لنفسه منها شيئا .

٦ ــ وكانتله في ارمينية آثار ادارية لهاصلة بالقضايا العسكرية ، منها كتابه في الصلح لاهـل تفليس، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من الجراح بن عبدالله لاهل تفليس من رســـناق (منجليس)(١٩٩) من كورة (جرزان)(٢٠٠) ، أنه أتوني بكتاب امان لهم من حبيب بن مسلمة(٢٠١) على الاقرار بصغار الجزية ، وأنه صـــالحهم على أرضين لهم وكروم وارحاء يقـــال لها (أوارى) و (سابينا) من رستاق منجليس ، وعن طعـــام وديدونا من رستاق (محويط) من كورة جرزان، على ان يؤدوا عن هذه الارحاء والكروم في كـــل سنة مئة درهم بلا ثانية ، فأنفذتلهم أمـــانهم وصلحهم وامرت الايراد عليهم ، فمن قرىء عليه كتابي ، فلا يتعد فيهم ذلك ان شاء الله »(٢٠٢) .

٧ ــ ولما نزل الجراح مدينة (برذعة) ايـام ولايته على ارمينية ، رفع اليه اختلاف مكاييلهـا وموازينها ، فأقامها على العدل والوفاء ، واتخذ مكيالا يدعى : الجراحي ، فأهلهـــا يتعـــاملون بـــه(٢٠٣) .

وهذه اللمحة من اهتمامه في القضايا الادارية التي اوردها المؤرخون مثالا على اهتماماته الادارية الاخرى ، تدل على مبلغ حرصه على شؤون رعيته وسهره على مصالحها .

٨ ــ ومما يدل على شهامة الجراح ومروءته، ان مسلمة بن عبدالملك حلف أن يبيع ذرية آل المهلب بعد انتصاره عليهم ومقتل يزيد بن المهلب واخوته واولاده(٢٠٤) ، فقال الجراح : « فانا اشتريهم منك لابر يمينك » ، فاشتراهم بمئة الف ، فلم يأخـذ مسلمة منه الثمن ، وخلى الجراح ســـبيلهم جميعا(٢٠٥) .

وعهدنا بأكثر الناس ، مع المنتصـــر على المهزوم ، ومع أصحاب السلطان على الذين زال سلطانهم ، ومع القوي على الضعيف ، ومع الغني على الفقير ، ومع الحي على الميت ، الا أصحاب المروءات الرفيعة ، وما أقلهم في كل زمان ومكان ، وهؤلاء يكونون مع (الحق) لا مع المصلحـــة الشخصية .

ولم يكن بمقدور كل أحد ان يقدم على شراء ذرية قائد تخلى عنه الحظ واصبح في عداد الاموات، وهذا دليل على قوة شخصية الجراح ومبلغ ثقة مسلمة به ، بالاضافة الى جوده وكرمه ومروءته.

فلا عجب ان يرثيه الشعراء، ويرثيه الخليفة هشام بن عبدالملك(٢٠٦) ، ويجزع لموته المسلمون.

وكان له عقب بوادي (إش)(٢٠٧) .

القـــائد

في سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، كانت الحرب دائرة بين ثورة عبـــدالرحمن بن محمد بن الاشعث في العراق وبين الحجاج بن يوسف

---

(١٩٩) منجليس : الرستاق الذي عاصمته مدينة تفليس .
(٢٠٠) جرزان : اسم جامع لناحية بارمينية ، قصبتهاتفليس، انظر التفاصيل في معجم البلدان ٣/٨٣ـ٨٤ .
(٢٠١) حبيب بن مسلمة الفهري : انظر ســـيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٢٠٢) فتوح البلدان ٢٨٤ ــ ٢٨٥ .
(٢٠٣) فتوح البلدان ٢٨٩ .
(٢٠٤) انظر تفاصيل فتنة يزيد بن المهلب في الطبري ٦/٥٧٨ـ ٦٠٤ ، وابن الاثير ٥/٥٧ ـ٨٩ .
(٢٠٥) الطبري ٦/٦٠٢ ، وابن الاثير ٥/٨٦ .
(٢٠٦) انظر ابن الاثير ٥/١٦٨ .
(٢٠٧) اش : من قرى خوارزم ، انظر معجم البلدان ١/٢٥٧ ، وانظر جمهرة انساب العرب ٤٠٨ عن عقبة وتفاصيـل نسبه .

الثقفي عامل الدولة على العراقيين(٢٠٨) ، واستمرت الحرب بين الجانبين مئة يوم وثلاثة أيام ، وكانت أشد كتائب ابن الاشعث قتالا واستبسالا هي كتيبة القراء المؤلفة من علماء المسلمين وقادة فكرهم : يحمل عليهم رجال الحجاج فلا يبرحون ، وكانوا قد عرفوا بثباتهم البطولي . وخرجت كتيبة القراء ذات يوم من أيام القتال كما كانوا يخرجون ، وعبأ الحجاج صفوفه ، وعبأ ابن الاشعث أصحابه وعبأ الحجاج لكتيبة القراء ثلاث كتائب ، وبعث عليها الجراح ، فأقبلوا نحوهم فحملوا على القراء حملات كل كتيبة تحمل حملة ، فلم يبرحوا وصبروا(٢٠٩) .

وكانت ثورة ابن الاشعث تهدد مصير الدولة بأفدح الاخطار ، وكان القراء صلب رجال ابن الاشعث وعمودهم الفقري ، لثقة الناس بهم ، ولانهم كانوا يستقتلون في الحرب ويطلبون الشهادة او النصر ويضربون أروع الامثال في الثبات لاصحاب ابن الاشعث وكان القضاء على مقاومة كتيبة القراء قضاء مبرما على ثورة ابن الاشعث ، فتولية الحجاج للجراح على كتائب مقاومة كتيبة القراء ومصاولتها ، دليل على ان الحجاج يثق بكفاية الجراح القيادية وشجاعته واقدامه وانه مسعر حرب حقا .

وفي هذه الثورة في أيام الحرب ، خرج عبدالله بن رزام الحارثي ، فطلب المبارزة ، فخرج اليه رجل من عسكر الحجاج ، فقتله . وفعل ذلك ثلاثة أيام ، يقتل كل من يبارزه من رجال الحجاج ، وفي اليوم الرابع خرج ، فقال أصحاب الحجاج : جاء لا جاء الله به ! وطلب الحارثي المبارزة ، فقال الحجاج للجراح : « اخرج اليه ». وخرج الجراح ، فقال له الحارثي وكان له صديقا: « ويحك يا جراح! ما أخرجك ! » فقال : « ابتليت بك » قال : « هل لك في خير ؟ » ، قال الجراح : « ما هو ؟ » ، قال: « أنهزم لك وترجع الى الحجاج وقد أحسنتَ عنده وحمدك ، وأما أنا ، فأحتمل مقالة الناس في انهزامي حبا لسلامتك ، فأني لا أحب قتل مثلك من قومي»، فقال الجراح : « افعل » .

وحمل الجراح على الحارثي ، فاستطرد له الحارثي ، وحمل عليه الجراح بجد يريد قتله ، فصاح للحارثي غلامه ، وكان ناحية معه ماء ليشربه، وقال له : « يا سيدي ! ان الرجل يريد قتلك » ، فعطف عليه الحارثي وضربه بعمود على رأسه فصرعه ، وقال له : « يا جراح ! بئس ما جزيتني ! أردت بك العافية وأردت قتلي ! انطلق ، فقد تركتك للقرابة والعشيرة(٢١٠) .

ومهما تكن نتيجة المبارزة ، الا ان مجرد اختيار الحجاج للجراح ليتولى مبارزة بطل من الابطال انتصر على أقرانه ثلاثة أيام متوالية ، يدل على ان الجراح كان بين جيش الحجاج بطلا متميزا لامعا ، خاصة وان انتصار مبارز على قرينه ، يؤثر في معنويات أصحاب المنتصر فيرفعها عاليا ، ويؤثر في معنويات أعداء أصحابه فيرديها الى الحضيض ، والنصر دائما لذوي المعنويات العالية، والهزيمة دائما لذوي المعنويات المنهارة .

كما أن ايثار الحارثي للجراح بالنصر ، واستئثاره بالهزيمة طوعا ، في مثل تلك الظروف الحرجة ، يدل على مكانة الجراح السامية ليس بين أصحابه حسب ، بل بين اعدائه أيضا ، ولا يكون هذا التنازل الطوعي الا لشخصية قوية نافذة تملأ الاعين قدرا وجلالا .

وكان الجراح يوصم بالجفاء ، أي انه صاحب ضبط شديد ، يسيطر على رجاله سيطرة قوية ، ومزية الضبط المتين احدى مزايا القائد الجيد .

وكان الجراح يتميز بالحرص الشديد في محاولة الحصول على المعلومات المفصلة عن عدوه ، وقد استطاع أن يكتشف أن بعض من كان معه في جيشه من أهل جبال القفقاس قد كاتب ملك الخزر يخبره ان المسلمين قد ساروا اليه ، فتظاهر الجراح بالبقاء في (برذعة) ، فكتب ذلك العين الى ملك الخزر يخبره ان المسلمين مقيمون ، وحينذاك بادر الجراح بالمسير ، فرحل مسرعا الى هدفه(٢١١) .

والقائد الحريص على اقتناص المعلومات التفصيلية عن عدوه، قائد يعمل في النور لا في الظلام، لان عملياته تكون على هدى وبصيرة ، فيتحرك وعيناه مفتوحتان ، مما ييسر له احراز النصر .

وقد أدى تظاهر الجراح بالبقاء في (برذعة) وقتا طويلا ، ثم رحيله السريع عنها الى هدفه ، مباغتة للعدو في الزمان ، لان الجراح وصل الى هدفه في وقت لا يتوقعه ذلك العدو ، والمباغتة كما هو معروف أهم مبادىء الحرب على الاطلاق .

وحين فتح الجراح مدينة (بلنجر) أسر أولاد

(٢٠٨) انظر التفاصيل في ابن الاثير ٤/٤٦١ ـ ٤٨٠ .
(٢٠٩) الطبري ٦/٣٥٠ وابن الاثير ٤/٤٧٢ .
(٢١٠) ابن الاثير ٤/٤٨٠ .
(٢١١) ابن الاثير ٥/١١١ .

صاحبها وغنم أمواله وسيطر على حصنه ، ولكنه استدعى اليه صاحب (بلنجر) ورد أمواله وأهله وحصنه اليه وجعله عينا للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم(٢١٢) .

وهذا دليل آخر على حرص الجراح الشديد في محاولاته للحصول على المعلومات المفصلة الدقيقة عن عدوه .

وكان الجراح من أولئك القادة الذين يصرون على احراز النصر مهما طالت المدة واشتدت وطأة القتال وكثرت الخسائر ، ولعل معركة (بلنجر) خير دليل على هذا الاصرار .

فقد كان نشاب العدو يحجب الشمس ، وكان حصن المدينة منيعا ، والتحم القتال بشدة حتى بلغت القلوب الحناجر ، دون ان يتخلى الجراح عن فتح (بلنجر)(٢١٣) .

ومزية الحرص الشديد على احراز النصربأي ثمن ، من مزايا القائد المتميز .

ولم ينكب جيش يقوده الجراح في غير ميدان القتال سواء كان ذلك في مسير الاقتراب أو في المعسكرات ، مما يدل على انه كان يتخذ التدابير الامنية كافة لحماية جيشه بالمقدمة واليمنة واليسرة والمؤخرة ، بالاضافة الى انه كان يتحرك وهو مفتوح العينين في النور ، لانه يحصل على المعلومات المفصلة الدقيقة عن العدو ، ويمنع العدو من الحصول على المعلومات المفصلة عن قواته .

وكما كان يهيء التدابير الامنية كافة لقواته التي يقودها ، كان يهيء التدابير الامنية كافة لنفسه ، وقد رُئي قد ظاهر بين درعين ، فقيل له في ذلك ، فقال : « لست أقي بدني وانما أقي صبري »(٢١٤) ، يريد : انه يقي معنوياته بهذين الدرعين .

ومن المعلوم أن الذي يتخذ التدابير الامنية لنفسه وقواته ، يرفع معنوياته ومعنوياتهم ماديا ومعنويا ، والامن مبدأ من أهم مبادىء الحرب .

لقد كان قائدا من قادة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه الذي كتب اليه مرة : « انه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا بعث جيشا أو سرية قال : (اغزوا باسم الله وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله : لا تغلوا(٢١٥) ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امراة ولا وليدا) ، فاذا بعثت جيشا أو سرية ، فمرهم بذلك(٢١٦) ، وكان أعرف بالله من أن ينهزم(٢١٧) ، كما وصفه أحد قادةالفتح الاسلامي(٢١٨) للخليفة هشام بن عبدالملك بن مروان .

واخيرا ضحى الجراح بروحه من أجل عقيدته، ولم يفصح بعقيدته من أجل روحه ، فضرج بدمه الطاهر ثرى ارمينية ، كما ضرج ثراها قبله وفي ايامه ومن بعده عدد كثير من قادة الفتح الاسلامي وجنوده .

لقد كان قائدا يثق به رؤساؤه ورجاله ، شجاعا مقداما ، ذا شخصية قوية نافذة ، يتحلى بالضبط المتين ، ويؤدي واجبه كاملا ويفضله على العلاقات الشخصية كالقربى والصداقة ، يأمر بالجهاد ويحث عليه ويحرض رجاله على القتال ، حريصا على الحصول على المعلومات الدقيقة عن عدوه ، يبذل قصارى جهده لاحراز النصر ، يطبق مبدأ المباغتة ، ومبدأ الامن في عملياته العسكرية .

وكان فوق ذلك قائدا عقائديا ، يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، يطلب الشهادة ويحرص على الموت حرص غيره على الحياة .

لقد كان الجراح قائدا متميزا .

الجراح في التاريخ

يذكر التاريخ للجراح ، أنه وطد اركان الامن في (خراسان) والعراق وارمينية .

ويذكر له انه استعاد فتح شطر خراسان وشطر ارمينية وفتح فتحا جديدا .

ويذكر له ، انه نشر العربية لغة والاسلام دينا في ارجاء شاسعة تمتد من خراسان الى ما وراء نهر جيحون الى ارمينية .

ويذكر له انه كان اداريا حازما وقائدا متميزا .

ويذكر انه كان مجاهدا صادقا ، يسعى الى الشهادة قبل ان تسعى الشهادة اليه .

رضي الله عن القائد الفاتح ، الاداري الحازم ، الشهيد البطل ، الجراح بن عبدالله الحكمي .

---

(٢١٢) ابن الاثير ١١٢/٥ .
(٢١٣) ابن الاثير ١١٢/٥ .
(٢١٤) العقد الفريد ١٧٨/١ وعيون الاخبار ١٧٨/١ .
(٢١٥) غل فلان غلولا : خان في المغنم وغيره .
(٢١٦) العقد الفريد ١٢٨/١ .
(٢١٧) ابن الاثير ١٥٩/٥ .
(٢١٨) هو : سعيد بن عمرو الحرشي ، اقرأ سيرته في : قادة فتح المشرق الاسلامي .